مَذْهَبُ الصَّابِئَة



سلسلة الأديان السرّيّة (١٠)

مَذْهَبُ الصَّابِئَة

بقلم: أ. سُهَيل قَاشَا

مراجعة: أ. جوزف قزّي

دار لأجل المعرفة

ديارعقل – لبنان

٢٠٠٣

سلسلة الأديان السرّيّة

١. **العقيدة الدرزيّة**، أنور ياسين؛ ١٩٨٩؛ ١٥٨ص. ٦ $.

٢. **تعليم الدين الدرزي**، مخطوط سؤال وجواب؛ نشره وعلّق عليه أنور ياسين؛ مترجم إلى الفرنسيّة؛ ٤٧+49 ص. ٣ $.

٣. **النّبيّ محمّد في العقيدة الدرزيّة**؛ وهو الرسالة ٧١ من رسائل الحكمة؛ نشرها وعلّق عليها وترجمها إلى الفرنسيّة أنور ياسين؛ ٤٠+38 ص. ٣ $.

٤. **العجل والشّيصبان في العقيدة الدرزيّة**؛ أنور ياسين؛ مترجم إلى الفرنسيّة؛ ٤٠+46 ص. ٣$.

٥. **رسالة درزيّة إلى النّصيريّين**؛ وهي الرسالة ١٥ من رسائل الحكمة؛ نشرها وعلّق عليها وترجمها إلى الفرنسيّة أنور ياسين؛ ٣٥+45؛ ٣ $.

٦. **تعليم الدين العلوي**؛ مخطوط في سؤال وجواب؛ نشره وعلّق عليه أنور ياسين؛ ١٩٨٦؛ ١١٢ص. ٣ $.

٧. **كتاب الباكورة السليمانيّة في كشف أسرار الديانة النصيريّة**؛ تأليف سليمان الأذَني؛ ١١٢ص؛ ٣$.

٨. **وجهة نظر مسيحيّة في الإسلام**؛ أ.جوزف قزّي، مترجم إلى الفرنسيّة؛ ٢٠٠٠؛ ٤٦+46 ص؛ ٣$.

٩. **مذهب اليزيديّة**، بقلم : أ. سهيل قاشا، مراجعة : أ. جوزف قزّي، ٢٠٠ صفحة.

١٠. **مذهب الصّابئة**، بقلم : أ. سهيل قاشا، مراجعة : أ. جوزف قزّي،

مقدمة

على ضـفاف دجلة والفـرات وشطّ العرب جنوب العـراق، جمـاعةٌ عرقيّـةٌ ودينيّة، تعايشت مع سكّان المنطقـة، ولعبتْ دورًا مهـمًا في تاريخ العراق، هم «الصـابئة المندائيُّون». هؤلاء عـاشوا آلاف السنين بين المـسلمين الشـيـعـة، جـنوب العـراق وأهواره. واتّخذوا من لغتهم المندائية في ممارسة طقـوسهم سبيلاً للحفاظ على كيـانهم الديني. هذه اللّغة لا يفـقـهـا مواطنوهم من الأديان الأخرى.

وكثـيرًا ما كـان يحدث الاعـتداء عليهم لقلّتـهم ولشبـهاتٍ تدور حـول عقائـدهم، أقلّها أنّهم يعـبدون الكواكب والنـجوم، أو يزهقـون أرواح المحـتضـرين منهم -هذا مـا يشـاع عنهم جنوب العراق-. وبرَّرَ بعض الفقهاء المسلمين نجاستهم لأنَّهم مشركون. وحكمـوا عليـهم بحـسب منطوق الآية «إنما المشْـرِكُـونَ نجس» (سورة التوبة ٩/٢٨). مع أن النظافة والطهر شاغلهم الأول.

يعـتبـر الصـابئـة ديانتَهم أقـدم ديانة على وجـه الأرض، وكـتـبـهم هي صـحف آدم وشـيـت، وإدريس (أخنوخ) ونوح، ويوحنا المعمدان (النبي يحيى). ويقولون إنّهم في مصاف بدايات الأديان التوحيدية والشرائع الموحـدة في التاريخ. ويقولون أيضاً بأنَّ الكل نحل من منحلهم؛ لذا من الصعب أن يعرف لهم مؤسس. وهذه الخاصـيّة مـيّزتهم عن اليـهوديّة والمجـوسيّة والمسـيحـيّة والمانويّة والإسلام وغيرها من الديانات والمذاهب.

الفصل الأوّل

الأسماء والأصول

١ . إن سألنا العرب ما معنى الصابئة؟ قالوا كلّهم كلاماً مختلفًا في المبنى، مؤتلفًا في المعنى، واكثروا من التفاسير والتآويل :

قال ابن القيّم العلامة في أصل الصابئة، في كتابه إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ما حرفه: «وأصل دين هؤلاء (أي الصابئة) فيما زعموا أنّهم يأخذون محاسن ديانات العالم، ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملاً. ولهذا سمُّوا «صابئة»، أي خارجين. فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كلِّ دين وتفصيله إلاّ ما رأوه فيه من الحق.

وكانت كفّار قريش تسمّي النبي: "صابئًا"، والصحابة: "الصبأة".

يُقال: صبأ الرجل بالهمز، إذا خرج من شيء إلى شيء. وصبا يصبو (كدعا يدعو) إذا مال. ومنه قوله: «وَإلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إلَيهِنَّ»[1]، أي أمِلْ. والمهموز والمعتلّ يشتركان. فالمهموز: ميل عن الشيء. والمعتلّ: ميل إليه. واسم الفاعل من المهموز: «صابئ» بوزن قارئ . ومن المعتل: «صابٍ» بوزن قاضٍ. وجمع الأوّل: «صابئون» كقارئون؛ والثاني «صابون» كقاضون. وقد قرئ بهما».

وقال سيف الدين أبو الحسن الآمدي في كتاب أبكار الافكار ما حرفه: «والأشبه في تسمية هذه الطائفة (صابئة) لميلهم وانحرافهم عن سنن الحقّ في نبوّة الأنبياء، واتّخاذهم آلهة غير اللّه تعالى؛ أخذاً من قول العرب: صبا الرجل: إذا مال وانحرف».

وقال في شفاء الغليل: «صابئ بن لا مك، علم أعجمي وهو أخو نوح، إليه تُنسب الصابئة. قاله السهيلي».

وقال في «المصباح»: وصبأ من دين إلى دين يَصبأُ مهموز بفتحتَين. خرج فهو صابئ. ثمّ جُعل هذا اللّقب علَمًا على طائفة من الكفّار، يقال إنّها تعبد الكواكب في الباطن، وتُنسب إلى النصرانيّة

---

(١) سورة يوسف ١٢/٣٣.

في الظاهر. وهم الصابئة والصابئون؛ ويدَّعون أنّهم على دين صابئ بن شيت بن آدم[٢]. ويجوز التخفيف، فيقال: «الصابون» وقرأ به نافع»[٢].

هذا هو رأي العرب في اشتقاق لفظة الصابئة.

أما الإفرنج فقد ذهبوا إلى غير هذا المذهب.

قال نُوربرغ في مقدّمة كتاب «المصحف الناصري»[٣] ما تعريبه، وقد نقل الكلام عن صاحب «كتاب الصابئة وديانتهم». ومن المرجّح أنّ كلمة «الصابئة» مشتقّة، على ما قاله العرب، من «صَبَغ»، أي «عَمَّد وأدخل في الماء»[٤].

---

(٢) ليس في أيدينا من الكتب تؤيد أن المسمّى «صابئ» هو ابن لامك، كما قاله في شفاء الغليل، أو ابن شيت، كما يقوله الفيومي.

(٢) مجلة المشرق، الأب أنستاس ماري الكرملي، الصابئة، بيروت (١٨٩٩)، مجلد ٣، ص ٥٥١.

(٣) Matth, Norberg: Codex Nasaroeus, Liber Adami appettatus; T. I, p. XIV, Nota 13

(٤) يقول الأب أنستاس الكرملي: «وهذا الإشتقاق ليس ببعيد فإنّ ما كان بالغين المعجمة في العربيّة فهو في سائر اللغات الساميّة بالعين المهملة. ولما كانت العين المهملة كثيرًا ما تبدل من الهمزة وبالعكس، كانت لفظة الصابئة بمعنى السابقة. لكن يردّ عليه وعلى من حذا حذوه، أنّ لفظة الصابئة قديمة وسُنّة الصبغ مقتبسة من النصرانيّة، وهي لم تكن عندهم

والرأي الآخر هو الذي ذكره صاحب مجلة المقتطف (٢٣: ٨٧) بما حرفه: «وذهبَ نولدكي إلى أنّها مشتقّة من صبّ الماء، إشارة إلى اعتمادهم بالماء لأنهم يعتمدون كالنصارى»(٥). وقد ذكر «المقتطف» في نفس تلك الصفحة رأياً آخر قبل رأي نولدكي. قال: «وذهب جَسَنِّيوس العالم اللّغوي الألماني أنّ كلمة صابئين مشتقّة من صبأوت العبرانيّة، أي جند السماء، دلالة على أنّهم يعبدون الكواكب». وهو رأي محتمل لأنّه يُخرَّج على الرأي الآتي، وهو:

«إنّ الصابئة –عند الكرملي– مشتقّة من صبأ، لفظة قديمة من عهد أنْ كانت اللغات الساميّة لغةً واحدة، أو لغة مختلطة مشتركة بين عامّة الساميّين ومُصحَّفة عن «صَنَوأ» التي قلبها العرب في إصلاحهم للغتهم إلى كلمة «صناء». ولا جرم أنّه وُجدَ زمان قبل الزمان الذي دُوِّنت فيه اللغة وقواعدها بقرون كثيرة أمور لغوية «عربيّة» تقرّبها من سائر أخواتها الساميّة؛ وهي اليوم قد فُقدت، أو قد أميتت، أو قد انقرضت، أو قد عَفت آثارها، ولم يبق منها إلاّ غيض من فيض، أو قيض من بيض. ولفظة الصابئة هي من هذا القبيل. فمعنى عبادة الصابئة إذن هي: عبادة

في بدء نشأتهم. وعليه فهذا الاشتقاق غير صحيح، وبالتالي غير مقبول.

(٥) مجلة المشرق، الكرملي، المرجع نفسه، ص ٥٥١.

الضائيّة. أي الأجرام المضيئة، وهي عبادة الكواكب والأجرام السماويّة. ومثل ضاء: صبأ. ومثل أضاء: أصبأ. وسائر المعاني العربيّة المتفرّعة مأخوذة من نشوء الضياء»[٦].

والصابئة إذا تكلموا بالعربيّة يُسمّون أنفسَهم «صابئة»، ويحرّفون اللفظة، ويصحفونها، فيقولون: «صُبّة»، والواحد منهم «صُبّي»؛ أو يسمّون نفوسهم «يحياوية»، والواحد منهم «يحياوي»، نسبة إلى يحيى، أي يوحنا الحصور (المعمدان)، لاعتقادهم أنّهم متمسّكون بطريقة يحيى بن زكريا، وهي بريئة منهم. أمّا إذا تكلّموا بلسانهم الصابئ فيسمّون نفوسَهم: «مَندايا»، والواحد منهم «مندايي». ومن ذلك تعريب إسمهم بهمزة بدلاً من الياء الأولى جريًا على الطريقة العربيّة[٧].

٢ . وإذ قد فهمنا معنى اللفظتَين الأولَيَين، بقي علينا أن نفهم معنى «مندايا».

فإذا سألنا الشيخ إبراهيم اليازجي فإنّه لا يتوقّف من أن يقول إنّ معناها، كما ذكرها نيقولا السيوفي: «أي الأقدمون»[٨].

---

(٦) مجلّة المشرق، الكرملي، المرجع نفسه، ص ٥٥٢.
(٧) مجلّة المشرق، الكرملي المرجع نفسه، ص ٥٥٣.
(٨) راجع البيان، ص ٦٩.

أمّـــا «المقـتـطـف» فـقـــد نقل[٩] عن القس S.M. Zwemer صموئيل زويمر رأياً آخـر قال: «ومِن روح المجد[١٠] انبثق الأردنُّ العظيم[١١]. ثمّ خُلقت الحـــياة القـديمة[١٢]؛ وهي مـعـــبـودهم الحـقيـقي[١٣]؛ وإليـه يُصلّون، وإليه يُـنسبـون. وقد صـــدر منه «منداحـياه» أي رسـول الحيـاة[١٤]، وهو وسـيطهم، وكلّ الذين يقبلون وساطته هم المندأون[١٥].

وإذا ســألنا آخـرين من المؤلِّفين عن مـعنى كلمـة «مَندايا» يجيبنا كلٌّ منهم جوابًا غير جواب الآخر. أمّا الحقيقة فهي أنّ لفظة «مندايا» مشتـقّة من فعل بلغتهم وهو «يَدَا»، ويقـابله في الآراميّة «يَدَعْ»، ومـعناه: عَلِمَ ودرى وعـرف وفَـهِمَ. وإسم الفـاعل منهـا

---

(٩) المقتطف، ٢٣: ٨٩.

(١٠) الأصح من «فرها» وهو المعبود الأعظم.

(١١) إنّ معنى لفظة الأردن عند الصابئة ليس علمًا لهـذا النهر المشهور بهذا الاسم، بل هو اسم معناه «النهر» مطلقًـا. وفي قولهم «النهر العظيم» الماء العـذب كلّه. وقـوله: «انبـثق» هو وهم ظاهـر، لأنّ المندائيين لا يسلّمـون بالانبثاق، ولا يعرفونه؛ وإنما يقولون «بانعكاسات صور الإلهيّة» لا غير.

(١٢) قلت وفي لسانهم «هَيِّي قَدْمايَي» أي «الحياة الأولى» لا الحياة القديمة.

(١٣) وهذا وهم آخر.

(١٤) والأصح مَندادْهَيِّي. ثمّ إنّ أبا، منداذْهَـيِّي ليس هو «هَيِّي قَدمـاييِ» بل روحاني، واسمه عندَهم نْباط. ومعناه : منبع الحياة.

(١٥) المشرق، الكرملي، المرجع نفسه، ص ٥٥٤.

«مَدْعَا»؛ ثمّ أُقحمت النون بين الميم والدال –وكثيرا ما يفعلون مثل هذا–، فصارت «مَنْدَعَا»؛ ولما كان حرف العين غير موجود في الصابئيّة، فهم إمّا يبدِّلونها بحرف من أحرف العلّة، أو يحذفونها اعتباطًا بدون إبدال. وعليه قالوا «مَنْدَا». وحاصل معناها: عارف، أو دارٍ. وبلفظة أخرى «أَدْرِيّ». وهذا يدلّك على أنّ المندائيّين ليسوا إلاّ أدْرِيِّين، أو فرقة من الأدْرِيّين. وينقل الصابئة معنى لفظة «مندا» من معنى الموصوفة إلى معنى الوصفيّة مطلقًا، فيكون معناها أيضًا «الدراية والعلم والمعرفة». ومن ذلك روحانيهم المعروف باسم «مَنْدادهيّي»، أي معرفة، أو دراية الحياة[١٦].

وهناك رأي آخر: «صرّحت بجلذان» وهو أنّ لفظة «المندايا» المنسوبة إلى «مندا» من فعل «يَدْا» ومعناه، فقير وصعلوك وخشن المعيشة. فتكون هذه اللفظة نقل معنى «إبيوني»، المشتقة من أصل عبري بمعنى مَندايا؛ وحينئذ يرجع المعنى إلى أنّ المندائيّة هم أدريّة، لأنّ الإبيونيّين هم فرقة من أولئك، أصلحها إبيون. ثم جاء بعده آخرون فتسمّت فرقهم المختلفة بأسماء مبدعيها. ومن عِداد هذه الفرقة الفرقة المنسوبة إلى أدَا»[١٧].

وهناك رأي ثالث، وهو أن «أدا» Ada كان من الذين أدخلوا

(١٦) المشرق، الكرملي، المرجع نفسه، ص ٥٥٤.

(١٧) المشرق، الكرملي، المرجع نفسه، ص ٥٥٤.

آراء جديدة في الصابـئيّة، وكان يعيش فـقيرًا صعلوكًـا كإبيون، فصحَّف أصحابه لفظة «أدَا» وجعلـوها «يدا»، فاشتقّوا منها إسم فـاعل، وقـالوا «مَنْدايا». ولمّا كـان هذا من الأدريّين كـان تابعـوهُ شيعة من هذه الفرقة[١٨].

والخـلاصـة، إنّنا، كيـفـمـا تصـرّفنا بتـأويل هذه اللفظة، توصّلنا إلـى نتـيـجـة واحـدة، أي أنّهم مـن الأدريّين، وأنّهم قـد انخـرطوا في سلكهم بدون أن يتـركوا عـبـادة الكواكب التي هي جوهر الصابئيّة وقوام معتقدها في سابق الزمان وحاضره.

٣ . وللصابئة إسم آخر وهو «نَصورايا».

قال «المقـتطف» عن معناها: أمّـا إسمهم نصـوراتي (كذا) فـتحـريف كلمـة نصارى او نسـاطرة (كـذا) نسـبةً إلى طائفـة النساطرة، التي كانت في سورية منذ عهد طويل»[١٩].

وعندنا، إنها مـشتقّة من فـعل: «نْصَرْ» ومعناه في لغـتهم: «رنّم ورتّل للّه وسبّحه ومجّـده». وذلك لأنّ الصابئة يكثرون في النهار الواحد من نوع من الاصطباغ يـسمّونه بلسانهم «الرَّشم»، ويُقابله عند العـرب «الوضوء» وهو الاغتسـال عند حدوث جنابة

(١٨) المقتطف، ٢٣: ٩.

(١٩) والأصح نصورايي أو نصورائي، أو ناصورايا على سبيل الحكاية.

أيًا كانت. وكما أنّ هذا الرَّشم لا يتمّ إلاّ بتلاوة الصلوات فعليه أصبح معنى «نصورايا» المصلّين والمسبّحين والممّجدين، ونحو ذلك. ثمّ توسعوا فيها فأصبح معناها «الصالح» مطلقًا من كل ملّة ونحلة. وإذا أرادوا أن يقولوا: «هذا رجل صالح» عبَّروا بلسانهم على هذا الوجه «هازين كورا ناصورايا». غير أنّهم في أغلب الأحايين يحصرون معنى اللّفظة بطائفة خَدَمة الدِّين أو الإكليروس. أو كما يقول العرب المسلمون: «العلماء». وسبب تقييدهم لهذا المعنى هو أنّ خَدَمة الدِّين عندهم يصلّون أكثر بكثير من عامَّتهم فحقّ لهم هذا الاسم .

ومن هذا كلّه نستنتج أنّ الذين يقولون إنَّ «النصورايا» هو إسم يطلق على جميع المندائيين هم في وَهم ظاهر. بخلاف ما لو قالوا إنّ ذلك هو إسمهم عند الأقدمين فحينئذٍ لا لوم عليهم ولا تثريب، ولا هم يحزنون عند التحقيق والتنقيب.

ومن أسمائهم القديمة ما ذكره العلاّمة المؤرخ تيودور بَرخوني صاحب «كتاب الاسكوليون». وإليك معرّب كلامه، قال: «واسمهم –أي اسم أتباع آدا وهم المندائيّون– في ميسان[٢٠]

---

(٢٠) ميسان: كورة معروفة من كوَر دجلة، بسواد العراق بين البصرة وواسط. راجع: التاج.

والمشكَنيُّون[٢١] أصحاب مَن يأتي القُرْبات. واسمهم في بيت أرمايي[٢٢] ناصورايي أصحاب دُستائي. أمّا الاسم الذي يليق بهم فهو الآدويون. وقد أخذوا مذهبهم عن المرقيونيّين، والمانويّين[٢٣]، والكَنتيّين»[٢٤]

---

(٢١) هذه اللفظة الأخيرة «المشكنيّون»، منسوبة إلى المشكنة وهي بلسانهم الفصيح الكنيسة والبيعة والمصلّى. أما بلغتهم العاميّة فتسمّى البيعة «مندي»، أصحاب من يأتي القُرُبات.

(٢٢) أي في سواد العراق (جنوب العراق).

(٢٣) **مرقيون**، ولد في سيتوب (بلاد بنطس)، كاتب مسيحي.نشر كتاب «المتناقضات»، أظهر فيه الفرق بين العهدين القديم والجديد. ولم يعترف إلاّ بإله العهد الجديد. أحدث بدعةً كانت أولى الكنائس المنفصلة. توفي حوالي سنة ١٥٥. **وماني** (٢١٥-٢٧٦) مؤسّس مذهب المانوية القائل بمدأي الخير والشر. النور والظلام، وإليه رجع اليزيديّة. أدخل ماني في التصوير الفارسي نسق التصوير الصيني ورسم الملائكة والشياطين.

(٢٤) Vid - Pagnon - insc- mand des couper de Khouabir, p. 154 et 224.

الفصل الثاني

شيء من التاريخ

لا نرى للصابئة ذكرًا صريحًا في كتاب العهد القديم، إلاّ من تلميح نوّه بعبادتهم: جاء في سفر تثنية الاشتراع، يُذكّر الناس بحفظ العهد، ويزحزحهم عن عبادة الأوثان، ثمّ ينحّيهم بعد ذلك عن الصابئة، أو عبادة النيّرات ما نصّه:

«.. وكيلا ترفع طرفك إلى السماء فتنظر الشمس والقمر والكواكب فتجتذب وتسجد لها وتعبدها»[1]. ويقرب من لفظ الصابئين حرف «السَبئيين»[2] في أصل الإشتقاق إلاّ أنّ هؤلاء

---

(١) سفر تثنية الاشتراع ٤/١٩.

(٢) والمستشرقون الإفرنج يسمّون الصابئين والسبئيين بلفظة واحد Sabéens؛ وكلاهما عندهم مشتق من «سبأ». فإذا أرادوا بلفظ Sabéens سكان مدينة سبأ أو مأرب كان لهم ذلك جائزًا من باب النسبة

قوم آخرون. وقد جاء ذكرهم في نبوّة أشعيا[٣] وفي الزبور[٤].

أمّا القرآن فقد ذكر الصابئة ذكرًا صريحًا. من ذلك ما جاء في سورة البقرة: «إنَّ الذينَ آمَنوا وَالذينَ هَادوا والنَّصارى وَالصابئِين مَن آمَنَ باللّه وَاليومِ الآخِرِ، وعَملَ صالحًا لَهم أجرُهم عند اللّه ولاخوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون» (البقرة ٢/٢).

وما جاء في سورة الحج: «إنَّ الذينَ آمَنوا والذينَ هادوا والصَّابئين والنَّصارى والمجوس والذين أشركوا. إنَّ اللّهَ يفصلُ بينهم يومَ القيامة. إنّ اللّه على كلِّ شيءٍ شهيد» (٢٢/٢٢).

عندهم. وإنْ أرادوا بذلك أيضًا الصابئة أو المندائية جاز لهم هذا أيضًا. وسبب هذا التجوّز هو أن الديانة التي كانت متغلّبة في قديم الزمان في سبأ هي الصابئيّة، أو عبادة الكواكب والنيّرات؛ فحق لهم وجه هذه التسميّة، لأنّ العادة في تسمية الأديان نسبتها إلى أصحابها الذين أنشأوها. فنقول مثلاً: الموسوية والمسيحيّة. لكن إذا جُهِلَ صاحبها فحينئذ تُنسب إلى البلد التي توجد فيها، أو وُجدتْ، أو نشأتْ؛ فيقول العرب مثلاً: «الحرَّانيَّة» لفرقة من الصابئة نشأت في بلدة حرّان، أو لفرقة سكنت في مدينة حرّان.

(٣) يقول إشعيا: «لأنّي أنا الرب إلهك قدّوس إسرائيل مخلّصك. جعلتُ مصرًا فداءَك وكوشا وسبأ عوضك» (أش ٤٣/٣). ويقول أيضًا: «هكذا قال الرب: تَعَبُ مصر وتجارة كوش والسبئيّون ذوو القامة، إليكِ يعبرون، ولكِ يكونون. خلفكِ يمشون. بالقيود يجوزون. ولكِ يسجدون. وإليكِ يتضرّعون، قائلين: فيكِ فقط الله. وليس آخر ليس إله. (٤٥/١٤).

وما جاء في سورة المائدة: «إنّ الذين آمَنوا والذين هادوا والصابئون والنَّصارى مَن آمنَ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ وعملَ صالحًا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون» (٥/٥).

وسائل يسألنا هنا : هل الصابئون الذين ذكرهم القرآن في عداد أهل الكتاب هم الصابئون أنفسهم الذين يدور الكلام عليهم في هذا البحث، وهم الذين لا يزالون موجودين اليوم في العراق؟!

نقول : قد أنكر قوم كون الصابئة الحاليّين هم صابئة القرآن. غير أنَّ نكيرهم لا يقوم على ساق صحيحة.

أمّا كونهم هم بعينهم فعلى ذلك شواهد كثيرة منها:

أولاً – شهادة الصابئة أنفسهم.

ثانيًا – إنَّ العلماء المشهورين الذين نبغوا بين الصابئة في عصر العباسيين الزاهر مذكورة أسماؤهم عندهم ويعظّمونهم ويؤكِّدون أنَّهم من نحلتهم.

ثالثًا – إنّ القرآن صرّح بكونهم من أهل الكتاب وكتابهم هذا هو المسمّى: «كنزَا ربَّا»، (أي الكتاب العظيم)، أو «سِدْرَا دَادَم» (أي سفر آدم)، لأنّهم يزعمون أنَّ اللَّه أنزله على صدر آدم.

رابعًا – إنّ هذا السفر، وإن كان قد زيد عليه زيادات بعد

القرن السابع للمسيح، إلاّ أنّ معظمه من القرن الثاني والثالث للمسيح، لأدلّة لا محلّ لذكرها هنا. وعليه فلمّا ظهر الإسلام، وكان سفر آدم بين أيدي أصحابه. ولكونهم يدّعون بأنّه أنزل على آدم، اعتبرهم صاحب الشريعة الاسلاميّة من أهل الكتاب.

خامسًا – يشهد على هذه الحقيقة الناصعة أهلُ التفسير. ولكي لا نُطيل الكلام على غير جدوى نستشهد بإمام المفسِّرين وشيخهم. قال في الكشّاف، في تفسير آية سورة البقرة: «والصّابئين، وهو مِن صبأ، إذا خرج من الدين. وهم قوم عدلوا عن دين اليهوديّة والنّصرانيّة وعبدوا الملائكة». ففي قوله «عبدوا الملائكة» إشارة إلى تعظيمهم الرُّوحانيين الذين عندهم بمنزلة الملائكة. وكثيرًا ما يسمّونهم بالملائكة أيضًا إلى يومنا هذا.

وقال في تفسير آية سورة الحج: «جُعل الصابئون مع النّصارى لأنّهم نوع منهم». وقد أشار المفسر بذلك إلى أنّ الصابئة فرقة من النّصارى قائمة بذاتها على ما مرّ بنا. إنّهم قد أدخلوا في معتقدهم شيئاً كثيراً من مذهب الأدْريِّين الذين كانوا بدعة هالكة من النصارى[٥].

وأمّا ذكر الصابئة في سائر كتب المؤرّخين القدماء فهي

---

(٤) «قال الجاهل في قلبه: ليس إله» (مزمور ٥٢ / ١).

كثيرة. راجع بهذا الصدد إسترابون، (Strabo XVI, 768) وديدرو (Diod. p. 3, 38, 46)، وبلين (Plin, p. 5, 32).

يحدثنا الشهرستاني (١٠٧٦-١١٥٣) عن رأيه بالصابئة، فيقرّ أنّهم يؤمنون بصانعٍ حكيم مقدّس. ومذهب هؤلاء، أنَّ للعالم صانعًا، فاطراً، حكيماً، مقدسًا عن سمات الحدثان، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلالته، وإنما يتقرّب إليه بالمتوسطات المقرّبين لديه، وهم الروحانيّون المطهَّرون المقدَّسون جوهرًا، وفعلاً، وحالة[٦].

أمّا فخر الدِّين الرَّازي (١١٤٨-١٢٠٩) فيقول: إنَّهم من عبدة الكواكب. وهو بهذا يجانب الصواب؛ ذلك أنّه سيتبيّن لنا أنَّ الصابئة مؤمنون موحِّدون أصحاب عقيدة كتابيّة، جاء بها النبي يحيى. وأنَّهم غير قوم إبراهيم، كما ظن الرَّازي.

ويضيف: ألصابئة قوم يقولون: إنَّ مدبّرَ هذا الكون وخالقَه، هذه الكواكب السبعة والنجوم. فهم عبدة الكواكب. ولما بعث اللَّه إبراهيم عليه السلام في حدوث الكواكب كما حكى اللَّه تعالى عنه في قوله: «لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ» (سورة الأنعام ٦/٧٦).

---

(٦) كتاب الملل والنحل، ١٢٦.

واعلم أن عبادة الأصنام أحدث من هذا الدين؛ لأنهم كانوا يعبدون النجوم عند ظهورها. ولما أرادوا أن يعبدوها عند غروبها، ولم يكن لهم بدّ من أن يصوِّروا الكواكب صورًا ومثلاً، فصنعوا أصناماً، واشتغلوا بعبادتها، فظهر من هنا عبادة الكواكب(٧).

وقال الشيخ شمس الدين الدمشقي المعروف بشيخ الربوة (ت ١٣٩٧): «وقيل: إنّ الصابئة قسمان: أحدهما: القائلون بالهياكل، وهم عبدة الكواكب؛ والآخرون القائلون بالاشخاص، وهم عبدة الاصنام. فأمّا القائلون بالهياكل، فإنهم يزعمون أنّهم أخذوا ذلك عن عَادِيمُون، وهو النبي شيت؛ وعاديمون أخذه عن أخنوخ، وهو هرمس الهرامسة. هذا زعمهم الباطل. وأمَّا الآخرون فيزعمون أنّ الأصنام صور روحانيِّات الكواكب لدورانهم، وهم القائلون بالأكوار والأدوار. هؤلاء زعموا أنّ المعبود واحد وكثير: أمّا الواحد والوحدانيّة ففي الذَّات والأزل؛ وأمّا الكثرة، فلأنّه يكثر بالأشخاص في رأي العين(٨).

ويتحدّث ابنُ الجوزي عن عقيدة الصابئِين، فيؤكِّد اختلاف العلماء في معرفة عقيدتهم بسبب سرِّيتها، إلاّ أنّه يذكر اعتقادهم بوجودِ خالقٍ لا مثيل له. يقول:

---

(٧) إعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ١٢٥-١٢٦.

(٨) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٤٤.

«مذهب الصابئين مختلف فيه، فمنهم مَن يقول: إنَّ هناك هيولي كان، ولم يزل، يصنع العالم من ذلك الهيولي. وقال أكثرهم: ألعالم ليس بمحدث. وسمّوا الكواكب ملائكة، وسمّاها قوم منهم آلهة، وعبدوها، وبنوا لها بيوت عبادات، وهم يدَّعون أنَّ بيت اللّه الحرام واحد منها، وهو بيت زحل.

«وزعم بعضهم أنّ اللّهَ عزّ وجلّ لا يوصف إلاّ بالنفي دون الاثبات. ويقال ليس بمحدث ولا موات، ولا جاهل، ولا عاجز. قالوا: لئلا يقع التشبيه. ولهم تعبّدات في شرائع، منها أنّهم زعموا أنّ عليهم ثلاث صلوات كلّ يوم، وعليهم صيام شهر، وحرّموا لحم الجزور... وزعموا أنّ الأرواح الخيِّرة تصعد إلى الكواكب الثابتة وإلى الضياء، وأنّ الشرّيرة تنزل إلى أسفل الأرضيِّين وإلى الظلمة. وبعضهم يقول: هذا العالم لا يَفنى، وأنَّ الثواب والعقاب في التناسخ. واشتغلوا بالتنجيم والتسخير. وقالوا: لا بدّ من متوسّط بين اللّه وبين خلقه في تعريف المعارف والارشاد للمصالح؛ إلاّ أنّ ذلك المتوسط ينبغي أن يكون روحانيًا لا جسمانيًا. قالوا: فنحن نحصل لأنفسنا مناسبة قدسيّة بيننا وبينه، فيكون ذلك وسيلة لنا إليه. وهؤلاء ينكرون بعث الأجساد»[٩].

---

(٩) تلبيس إبليس، ص ٨٤.

وقال ابن النديم (ت ٩٩٥): «هؤلاء القوم كـثيرون بنواحي البطائح، هم صابئة البطائح. يقولون بالاغتسال، ويغسلون جميع ما يـأكلون. ورئيسُـهم يُعرف بالحـسيح، وهو الذي شـرّع الملّة. ويزعم أنّ الكونَين ذكر وانـثى، وأنّ البقول من شـرع الذكر، وأنّ الاكشوش من شرع الانثى، وأنّ الاشجـار عروقه... ولهم أقاويل شنيعة، تجري مجرى الخرافة. وكـان تلميذه، ويقال له شمعون. وكانوا يوافـقون المانوية في الأصلَين... وفيـهم مَن يعظم النجوم إلى وقتنا هذا»[١٠].

ويأتي ابن كـثيـر على ذكرهـم في تفسـيـره فـينقل آراء العلمـاء، ويؤكّد أنّ أبا حـنيفـة أحلّ أكْل ذبائحـهم بوصفـهم أهل كتاب. يقول: «اختلف فيهم، فقال سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن مجـاهد، قال: "ألصابئـون قوم بين المجوس واليـهود والنّصارى ليس لهم دين".

وكذا رواه إبن أبي نجـيح عن عطاء وسعيد بن جـبر، وأبي العاليـه، والربيع بن أنَس، والسُّـدي، وجابر بن زيد، والضـحّاك، وإسحق بن راهويـه: "ألصابئون فـرقة من أهل الكتـاب يقرأون الزبور. ولهذا قال أبو حنيفة: "لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم".

---

(١٠) الفهرست، ص ٣٤.

وقال هشيم عن مطرف: "كنّا عند الحكيم بن عتبة، فحدّثه رجل من أهل البصرة، عن الحسن، أنّه كان يقول في الصابئين: إنّهم كالمجوس. فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك؟!".

وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن عبد الكريم: "سمعتُ الحسن ذَكَر الصابئين فقال: هم قوم يعبدون الملائكة". وقال ابن جرير: "سمعت الحسن ذَكَر الصابئين فقال: هم قوم يعبدون الملائكة». وقال ابن جرير: «حدّثنا محمد بن عبد الأعلى، حدّثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، عن الحسن، قال: "أخبر زياد أنّ الصابئين يصلّون إلى القبلة، ويصلّون الخمس. قال فأراد أن يضع عنهم الجزية. قال: فخبّر بعد أنّهم يعبدون الملائكة".

وقال إبن أبي حاتم: حدّثنا يونس بن عبد الأعلى، و أخبر ابنُ وهَب، أخبرني ابن أبي الزناد عن أبيه قال: "ألصابئون قوم مما يلي العراق، وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنَّبيِّين كلِّهم، ويصومون من كلٍّ سنة ثلاثين يومًا، ويصلّون إلى اليمين، كلَّ يوم خمس صلوات".

وسئل وهب بن منبه عن الصابئي فقال: «الذي يعرف اللَّه وحدَه، وليست له شريعة يعمل بها، ولَم يحدّث كفرًا».

وقال عبد اللّه بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: "ألصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل، يقولون

لا إلهَ إلاّ اللّه، وليس لهم عمل، ولا كتاب، ولا نبي، إلاّ قول لا إله إلاّ الله" قال: "ولم يؤمنوا برسول. فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي (ص) وأصحابه: «هؤلاء الصابئون يشبّهونهم بهم، يعني في قول لا إله إلاّ اللّه".

وقال الخليل: "هم قوم يشبه دينهم دينَ النصارى، إلاّ أنّ قبلتهم نحو مهبّ الجنوب. يزعمون أنّهم على دين نوح عليه السلام".

وحكى القرطبي عن مجاهد، والحسن، وابن أبي نجيح: "إنّهم قوم تركَّبَ دينُهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائهم، ولا تُنكح نساؤهم"»[١١].

قال القرطبي: «والذي تحصّل من مذهبهم، فيما ذكره بعض العلماء، أنّهم موحِّدون، ويعتقدون بتأثير النجوم، وأنَّها فاعلة. ولهذا أفتى أبو سعيد الاصطخري بكفرهم باللّه، حين سأله عنهم. واختار الرازي أنَّ الصابئين قوم يعبدون الكواكب، بمعنى أنّ اللّه جعلَها قبلةً للعبادة والدعاء، أو بمعنى أنّ اللّه فوّض تدبير أمر هذا العالم إليها، وقال: "وهذا القول هو المنسوب إلى

---

(١١) عن محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيّين، دار الوثائق دمشق، ١٩٩٨، ص ٢٢-٢٣.

الكشرانيّين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام، رادًا عليهم، ومبطلاً لقولهم»[١٢].

وأظهر الأقوال، واللّه أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه أنّهم قوم ليسوا على دين اليهود، ولا النصارى، ولا المجوس ولا المشركين؛ وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين لهم يتبعونه ويقتفونه. ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ، أي إنّه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض، إذ ذاك، فقال بعض العلماء: " الصابئون الذين لم تبلغهم دعوى نبيّ، واللّه أعلم»[١٣].

***

أمّا الباحثون المعاصرون، فقد أوردوا هم أيضًا في كتاباتهم شيئًا عن الصابئة المندائيّين:

فالأستاذ عباس محمود العقاد يرى أهميّة دراسة عقيدة هذه الفرقة فيقول: «والمحقّق من أمرهم أنّهم يرجعون إلى أصل قديم، لأنّ استقلالهم باللّغة الدينيّة، والكتابة الأبجدية، لم ينشأ في عصر حديث... ومع استقلال الصابئة، باللغة الدينيّة والكتابة

---

(١٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٠٤.

(١٣) تفسير القرطبي ١/ ٣٧.

الأبجدية، يشتركون مع أصحاب الأديان في شعائر كثيرة... فهم يشبهون البراهمة والمجوس، والأورفيّين أصحاب النِّحل السرِّية، كما يشبهون اليهود والنصارى والمسلمين، أو كما يشبهون الفلاسفة وأصحاب المذاهب العقليّة، في تفسير الوجود والموجودات. وهم كما يشبهون الجميع، يخالفون الجميع....

«وهم ينكرون الأنبياء، ويقولون: إنّ اللّه لا يخاطب أحدًا من البشر، وإنما خلق اللّه الروحانيّات، أي الملائكة، ثم تلبّست هذه الرّوحانيّات بالكواكب النورانيّة، لمّا احتاج الأمر إلى أمثلة لهذه الكواكب، يراها العباد حينَ يشاؤون، صنعوا لها صورًا من الأوثان، وجعلوا اتّجاههم إلى نجم القطب ، لأنّه ثابت في مكانه... والمشهود عن الصابئة، أنّهم يوقرون الكعبة، في مكّة، ويعتقدون أنّها من بناء هرمس، أو إدريس عليه السلام.

ولكنَّ الدراسات الحديثة بيّنت للباحثين شأن هذه الملّة، وثبت لهم أنّها تؤمن باللّه واليوم الآخِر، وتؤمن بالحساب والعقاب، وأنّ الأبرار يذهبون بعد الموت إلى «آلمي دنهورو»، وأنّ المذنبين يذهبون بعد الموت إلى عالم الظلام «آلمي دهشوخا»[١٤].

---

(١٤) إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١٠٨.

ويقـول عبـد العـزيز الثـعالبي في الصـابئـة: «هي ديانة عاديموس الأوّل. كـانت في القديم من أعظم الأديان انتـشارًا في العالم، وكـان منشؤها في العراق، وكـعبتهـا حرّان[١٥]. وهي في الأصل دين الكواكب السبعة، والبروج الإثني عشر. أثبت التاريخ أنّ العرب كانوا يدينون بالصابئة منذ القرون الأولى، وقد اتّخذوا لهـا الهيـاكل وسمّـوها البـيوت، وجـعلوها مـعابد يقـدّسونهـا، ويدينون بها. ويدلّ على ذلـك أنّهم كانوا يسمّون أنـفسـهم عبـيدًا لها، كقولهم: عبد شمس، وعبد المشترى، ونحو ذلك»[١٦].

ويعـتقـد سيّـد قطب المفسّـر المصري الحـديث بأنّهم، أي الصابئة، من مشركي العـرب، الذين توصّلوا بعد بحثٍ إلى عقيدة جديدة يرتـضونها إلى الإيمان بإلـه واحد فيـقول: «الصـابئون، الأرجح أنّهم تلك الطائفـة من مشركي العـرب قبل البعـثة، الذين ساورهم الشكُّ فيـما كان عليه قـومٌ من عبادة الأصنام، فبـحثوا لأنفســهم عن عقيـدة يرتضونها، فاهتـدوا إلى التوحيـد، وقالوا: إنّهم يتعبّدون على الحنيفيّـة الأولى، ملّة إبراهيم، واعتزلوا عبادة

---

(١٥) كانت مدينة عظيـمة، وهي قاعدة ديار مصر بينهـا وبين الرها مسيرة يوم للراكب، وبين الرّقـة يومان، وهي على طريق الموصل وحلب، فـتحت صلحًا في عهد عمر بن الخطاب.

(١٦) محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، ص ٢٢-٢٥

قومـهم، دون أن تكون لهم دعوة فـيهم، فـقال عنهم المشـركون: إنّهم صـبأوا، أي مـالوا عن دين آبائهم، كـمـا كانوا يقـولون عن المسلمين بعد ذلك، ومِن ثمّ سُمّـوا الصابئة. وهذا القول أرجح من القول إنهم عبدة النجوم، كما جاء في بعض التفاسير»[١٧].

ويعبّـر الدكتـور مصطفى جـواد المؤرّخ العلاّمـة العراقي الكبيـر عن رأيه فيقول: «ويظهـر لي أن أكثر صابئة الـعرب كانوا باليمن. قال الهمداني في كلامه عن رئام: «أمّا رئام فكان متنسّكًا، يُتنَسّك عنده، ويُحَجّ إليه، وهو في رأس جبلٍ أعلى من بلد همدان، يُنسب إلى رئام بن نهفان... ثمّ قصـرمملكته، وقدام باب القصر، حائط فيه بلاطة، فيها صورة الشمس والهلال، فإذا خرج الملك لم يقع بصره على أوّل منها[١٨]. فإذا رآها سجد لها بأن يضع راحتَه تحت ذقنه، عن وجـه يستـره، ثم يخرّ بذقنه عليـها.. ثم قـال في الكلام عن «مَـدْر»: " وفي مسجـد مَدْر أسـاطين مما نزع من تلك القـصور، وليس في المسـجـد الحرام مـثلهـا، وهي أكثف منهـا، وأحسن نجـرًا، كأنّها مفـرغة في قالب، وقـبالة قصـر الملك منها بلاطة فيها، مستقبلة للمـشرق، وصورة الشمس والقمر تقابلانه

(١٧) في ظلال القرآن ١/٩٣-٩٤.

(١٨) يعني شيئا قبلها، إستعمل اسم التفضيل على حقيقته.

إذا خرج الملك سجد لهما "[١٩]. فهذا السجود من أركان عبادة الصابئة.

وقال الهمداني: «وهو في معنى قوله -عزّ وجل- في بعض التفسير: «ويخرجُونَ للأذقَانِ يَبكُون ويزيدُهُم خُشوعًا»[٢٠]، قلت: كان الهمداني حريًا أن يستشهد في هذا الموضوع بقول القرآن: «وَجِئتُكَ مِن سَبَإٍ بنبإٍ يَقين، إنِّي وجدتُ إمرأةً تَمْلِكُهُم، وأُوتِيتْ مِن كلِّ شَيءٍ، ولَهَا عرشٌ عظيمٌ. وجَدتُّها وقَومَها يَسجُدونَ للشمسِ مِن دونِ اللَّه. وزَيَّن لهُمُ الشيطانُ أعمالَهم فَصَدَّهم عن السبيلِ. فَهُمْ لا يَهتَدُونَ»[٢١]. وقد أثبت القرآن بهذا القول أنَّ قوم بلقيس ملكة سبأ كانوا يسجدون للشمس، فهم صابئة العرب»[٢٢].

ويقدّم لنا عبد الرزّاق الحسني الباحث العراقي المعاصر رأيه في الصابئة قائلاً: «يعتقد الصابئون (المندائيّون) الخالقَ، جلّ شأنه، واحد أزلي أبدي، لا أوّل لوجوده، ولا نهاية له، منزّه عن عالم المادّة والطبيعة، لا تناله الحواس، ولا يفضى إليه

---

(١٩) نقلاً عن الإكليل، ص ١١٥-١١٦.

(٢٠) المرجع السابق، ص ٨٣.

(٢١) سورة النمل ٢٧ / ٢٢-٢٤.

(٢٢) مجلة العربي، العدد ١١٦، ص ١٠٨.

يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حرّان فقيه، فقال لهم: وجدتُ لكم شيئًا تنجون به، وتَسلمون من القتل. فحملوا إليه مالاً عظيمًا من بيت مالهم، أحدثوه منذ أيّام الرشيد إلى هذه الغاية. وأنا أشرح لك، أيّدكَ اللّه، السببَ في ذلك، فقال لهم: إذا رجع المأمون من سفره، فقولوا له: نحن الصابئون، فهذا إسم دين قد ذكره اللّه جلّ اسمه في القرآن، فانتحلوه فأنتم تنجون به.

«وقضى أنّ المأمون توفّي في سفرته تلك بالبذندون وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت، لأنّه لم يكن بحرّان ونواحيها قوم يسمّون بالصابة.

«فلما اتصل بهم وفاة المأمون، ارتدّ أكثر من تنصّر منهم، ورجع إلى الحرنانيّة، وطوّلوا شعورَهم حسبما كانوا عليه قبل مرور المأمون بهم على أنّهم صابئون[٢٤].

---

(٢٤) راجع كتاب الفهرست لابن النديم، ص ٤٤٥-٤٤٦.

الفصل الثالث

بابل والصابئيّة

وجود الصابئة في مناطق عديدة من جنوب العراق ولا سيما في الحلّة القريبة من بابل، والناصريّة القريبة من أور، والبصرة ، والعمارة في ميسان وغيرها، ومنذ أكثر من عشرين قرناً، أثار اهتمامَ الباحثين من العرب والمستشرقين، وشرعوا في دراسة معتقداتهم ورسومهم، للربط بينها وبين ديانة البابليّين.

وقد ألمح العديد من المؤرّخين المسلمين إلى أنّ المعتقدات الصابئيّة برزت في بابل أوّلاً. ويورد بعضهم أسماء، يقول عنها إنّهم ملوك بابليّون، اعتنقوا الدين الصابئي[١]، ومنهم ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م)[٢].

---

(١) يقول الشيخ أحمد فهمي محمّد في هوامشه على كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني ج ٢، ص ٥٦ و ٦٧: «إنّ زان (؟) ملك بابل كان يدين بالصابئيّة، وإنّ النمرود (؟) من ملوك آشور كان على دين الصابئة».

(٢) يقول ابن خلدون في كتابه العِبَر، ج ١، ص ٢٢٩: «إنّ بيوراسب ظهر

ويذهب هنري لايارد (١٨١٧-١٨٩٤)، عالم الآثار الإنكليزي، الذي أسهم في الكشف عن الآثار الأشوريّة، إلى أنّ الدِّين الأشوري في أيّامه المبكرة، وهو امتداد للدين البابلي، كان صابئي المنحى. والسبب هو التركيز على دور الكواكب والظواهر الفلكيّة في تقرير سلوك الإنسان على الأرض، وبالتالي عبادة هذه الكواكب(٣).

ويذهب راولنسن، العالم الآثاري الإنكليزي، والذي أكمل ما بدأه لايارد من تنقيبات، نفسَ المذهب في استخدام مصطلح الصابئيّة، وفسّرها بأنّها العبادة البسيطة لـ «حشد السماء»، أي الشمس والقمر والكواكب والأثير(٤).

إستنادًا إلى ما سبق عكف عدد من الباحثين على البحث عن نقاط الالتقاء والاختلاف ما بين الدينَين(٥).

أثناء حكم طمهورت أول ملوك بابل (؟) ودعا إلى ملّة الصابئة».

(٣) A. H. Layard, Nineveh and the Remain, John Murry London, 1849, Vol. II. p. 439.

(٤) M.A. Rowlinson, The five Great Monarchies of the Eastren World, London, 1862, Vol. I. p. 139.

(٥) أهم مصدرين في هذا الشأن: G. Windengren, Mesopotamian Elements in Manidaeism, Uppsala, 1946

W. Brand, Die Mandaïsche Religion, Leipzig, 1889

كلا الديانتين تُنزِلان الماءَ منزلةً عالية.

ألبابليّون -ومن قبلهم- السومريّون والأكّاديّون، كانوا يرون في الماء مصدر الحياة. وكان السكّان الأوائل لوادي الرافدَين، لا سيّما في المناطق الجنوبية، ترى أنَّ الماء يدخل في كلٍّ جانب من جوانب حياتهم: غذاؤهم من الزرع والصيد في الأهوار والأنهار. بيوتهم تُبنى مما تنبته الأهوار، الطمى (الغرين) الذي كان يحمله النهران أن يوفّر لهم الأرض التي يزرعون ويسكنون المياه تتهدّدهم بفيضاناتها...

في الماء، إذن، تكمن القوّة التي تتحكّم بحياة العالم. فانتهوا إلى أنّ أبسو (أكادية)، أو آبزو (سومرية)، وتعني هاوية المياه العذبة. وقرينته تيامات (مياه البحر المالحة) هما مبدأ الخالق، اللّذين لا أوّل لهما ولا آخِر. ومنهما تولّد الآلهة الآخرون بعد عصور.

وقد ظلّ العراقيّون من بعد يتوارثون تقديس الماء، واعتباره أداة التطهير. لقد كان من تقاليد الطقس اليومي للمعبد البابلي أن يجري غسل تماثيل الآلهة. ورشّ المعبد بالماء الطاهر[٦]. وفي السِّحْر البابلي كثيرٌ من الإشارات إلى دور الماء. ففي تعويذة

---

(٦) عزيز سباهي، أصول الصابئة، دار المدى، ط ١ (١٩٩٦)، ص ٦٣.

أريدو[٧] يُلزم مَن يُجرَى له التعزيم بالتطهير بالماء[٨]. ويُلزم المريض الذي «تلبّسته الروح» بأن يتطهّر بالماء أوّلاً[٩].

أمّا بالنسبة إلى المندائيّة، فالماء هو مصدر الحياة ذاتها. فرجل الدِّين، الذي يتهيَّأ لتعميد أحد المندائيّين، يتعيّن عليه أن يبدأ بما يدعى بـ «الرشامة»، أي رشّ الماء على وجهه ويدَيه ورجلَيه، وتجري عند النهر. ويفتتحها بقوله: «ألسلام والنزاهة، لكَ يا أبا الآباء، الملاك برياوس، أبا الماء الجاري العظيم، ماء الحياة».

ويقول، وهو يغسل يدَيه في الماء الجاري: «أُطهِّر يديَّ بالعهد، وشفتيَّ بالإيمان، لينطقا بكلام النور، وأفكاري تدخل في عقيدة النور». ويقول، وهو يمسح جبهته بأطراف أصابعه المبلّلة من اليمين إلى اليسار، ثلاث مرات: «أنا فلان بن فلانة (يذكر إسمه الديني–الملواشة)[١٠]، أرتسم برسم الحياة، إسم الحيّ،

---

(٧) أريدو (أبو شهرين:ثانية مدن السومريّين المقدّسة بعد نيبور، على بعد نحو ١٢ ميلاً عن أور، مركز عبادة آله الماء أنكي – آيا.

(٨) عزيز سباهي، المرجع نفسه، ص ٦٣.

(٩) عزيز سباهي، المرجع نفسه، ص ٦٣.

(١٠) الملواشة هي الإسم الديني للمندائي. وتجري المراسيم له بهذا الإسم ويتألّف من إسمه وإسم أمّه. ويُختار الإسم من لائحة بالأسماء الدينيّة المحبَّبة طبقًا لحساب الشهر واليوم والساعة التي ولد فيها. ويضاف له إسم الأمّ الذي اختير من قبل بنفس الطريقة.

واسم عارف الحيّ، منطوق عليّ». ويقول، وهو يغسل أذنيه ثلاث مرات: «أذناي تصغيان لأقوال الحيّ». ويقول، وهو يستنشق رائحة الماء الجاري وهو يغترفه ثلاث مرات: «أنفي يستنشق رائحة الحياة».

ويعيد تأكيد معنى الماء مع باقي الحركات التي يؤدّيها خلال وضوئه هذا. ويُعتقد أنّ للماء قدرةً على التطهير، لذلك يترتّب على كلٍّ مَن يمسّ جثمان الميت وكلٍّ امرأة تحيض، والرجل والمرأة بعد الاتّصال الجنسي، أن يرتمس في الماء الجاري لكي يتطهّر من النجاسة.

والمندي (معبد الصابئة). وكان يُلفظ قديماً مندا (صيغة المفرد من مندي). وقد يسمَّى أيضًا مشكنا، وتعني البيت (والبابليون يدعون معابدهم بـ "البيت-إي"). وهو كوخ صغير من القصب المطلي بالطِّين، ويبنَى بمقاسات خاصّة. وهو ذو باب ضيّق، بطول قامة الإنسان المتوسط. ويبنَى على الأرض غير المبلّطة. والفتحة الوحيدة فيه هي الباب التي تواجه الجنوب، لكي يتّجه مَن يدخله نحو الشمال، نحو النجم القطبي، حيث يتّجه المندائيّون في صلواتهم. ولا تجري فيه أية شعائر دينيّة، يجوز للعامّة أن تشارك فيها. وأمامه برْكة، أو حوض من الماء، يرتبط بقناتَين في مجرى الماء الجاري، تسمحان بجريان الماء في البرْكة. والمندي يطهَّر سنويًا وفق طقوس خاصَّة بالماء الحيّ، بعد أن

يحاط بأخاديد رفيعة على سطح الأرض، تدعى «ميسرة». وهي تكون حدودًا للمندي لا يجوز تخطّيها من جانبِ أيٍّ شخصٍ غير طاهر(١١).

إنّ المندي، بشكله هذا لا يختلف في شيء عن أكواخ الفلاّحين في جنوب العراق قرب الأهوار، إذا استثنينا المقاسات والشروط الدينيّة الأخرى. ألذي يهمّنا هنا أنّ هذا المعبد يذكّر بالمعابد البابليّة في مراحل العبادة الأولى، حيث كان يوضع تمثال الإله في كوخٍ صغير، مبنيٍّ من القصب والطّين، ويجلس فيه الكاهن، وإليه يلتجئ الناس التماسًا للمشورة. وقد عُثر في رقيمٍ مشهور من (كيش) على صورة هذا المعبد(١٢).

ويلتقي المندائيّون بالبابليّين في تحريم حلق اللّحَى وشعر الرأس. فالدِّين المندائي يحرّم قصّ شعر اللّحية والرأس. ورغم أنّ عامّة الصابئة لا يتقيّدون بهذا التحريم اليوم، إلاّ أنّ رجال الدِّين منهم ملزَمون تمامًا بهذا التحريم. فهم يتركون لحاهم لتطول

---

(١١) طقوس تطهير المندي طويلة، ومعقّدة. يمكن لمن يرغب في الاستفادة أن يعود إلى الفصل الثامن من كتاب الليدي دراور «الصابئة والمندائيّون»، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، منشورات مكتبة الأندلس، بغداد (١٩٦٩).

(١٢) ص. هـ هوك، ديانة بابل وأشور، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٨٧، ص ٧٦.

وشعرَ الرأس يضفرونه كالنساء. وتذكّرنا (الرسنة)، لباس التعميد الأبيض لدى المندائيّين، باللّباس الأبيض الذي كان الكهنة البابليون يرتدونه عندما يؤدّون وظائفهم الدينيّة.

لقد كان الكهنة البابليّون في الأزمنة الأولى يمارسون الطقوس الدينيّة وهم عراة. لكنّهم صاروا يلبسون اللّباس التقليدي للكهنة من بعد، وهو من الكتّان الأبيض. وتشير السيدة دراور إلى التشابه الكبير بين اللّباس الدِّيني للفرس والمندائيّين والأحكام الدينيّة التي تتعلّق بأجزاء هذا اللّباس لدى الجماعتين[١٣].

وفي بابل، كانت الكهانة وراثيّة، وكان الأب يتولّى نقل المعلومات التي تتعلّق بالوظائف الكهنوتيّة إلى ابنه، وهو يحرص على تعليمه قراءة الخطّ المسماري وكتابته، وحفظ الأدعية والتراتيل، وكانت معرفة الطقوس محصورة بين الكهنة ومَن يُعدُّ من الأبناء ليكون كاهنًا.

وغالبًا ما كانت النصوص الدينيّة تنتهي بالعبارة التالية: «هذه الطقوس التي سوف يؤدّيها، يحقّ للمريد أن يطلّع عليها،

---

(١٣) الليدي دراور، المندائيّون في العراق وإيران؛ الترجمة العربيّة وردت بعنوان «الصابئة المندائيّون»، هامش رقم ١.

ولا يحقّ لغير هؤلاء أن يطلّع عليها وإلاّ قصرتْ أيّامه، وعلى المريد أن يعلّمها مريدًا غيره. أمّا الدنيوي فلا يجوز أن يراها، فهي من الأشياء التي حظّرها كبار الآلهة: آنو وأنليل وإيا»(١٤).

وهذا ما ينسج على منواله المندائيّون. فمع أنّه ليس هناك من نصٍّ ديني يُلزم بحصر وظيفة الكهانة في عوائل بذاتها، إلاّ أنّ هذه الوظيفة كادت أن تكون حتى العقود الأخيرة. فلقد ظلّ الآباء يعدّون أبناءهم لإداء هذه الوظيفة، ويعلّمونهم منذ نعومة أظفارهم اللغةَ المندائية قراءةً وكتابة، ويدرّبونهم على حفظ النصوص واستظهارها. وتشدّد تعاليمهم على صون «الأسرار الدينيّة التي لا تُباح إلاّ للمرشح الديني (الترميذة) حين تجري الطقوس لترسيمه، وهي لا تَرِد مدوّنةً في أيّ نصٍّ ديني، وإنما ينقلها له الرجل الديني الذي يشرف على إعداده أثناء طقوس الترسيم. ولا يجوز لرجل الدِّين أن يردّدها أمام أحد، حتى وإنْ كان مندائيًا. ولدى إجراء الطقوس يجري ترديدها همسًا لكي يتعذّر على أحد أن يسمعها بوضوح بمن فيهم من يُجري له الطقس(١٥).

---

(١٤) هوك، عن عزيز سباهي، المرجع نفسه، ص ٦٦.

(١٥) Drower, E.S., A Puir of Nosoraean commentries, Leiden, Brill, 1963, p. 52؛ عن عزيز سباهي المرجع نفسه، ص ٦٧.

يظل هناك تحفّظ معيّن يحسن أن نختم به كلامَنا هذا، وهو أنَّ الجماعات البابليّة وغير البابليّة التي أسكنها ملوكُ آشور وبختنصّر في فلسطين، والسامريّون، كما يذهب بعض الباحثين من هؤلاء، والذين عادوا من سبي بابل أيّام قورش إلى فلسطين، ربما يكونون قد حملوا معهم الأساطير والمعتقدات البابليّة، فهل برزت المندائيّة هناك، كما تذهب نظريّة الأصل الغربي للمندائيّة، وكما ذهب البَيروني مِن قبل؟. لا نفضّل التعجل في طرح استنتاجنا، حتّى نفرغ من المقارنات التي شرعنا بها، والتي سنتناول في إطارها البيئة الفلسطينيّة في فصل آخر.



الفصل الرابع

الأسينيّون والصابئة

أوّل ما يـرد في ذهن المرء، وهو يقـارِن بين الصـابـئـة والأسينيّين، مسألة التعـميد، وهو واحد من أسس الدِّين المندائي. فلا بدّ من وقـفةٍ عند التعـميد لدى الأسيـنيّين ونظرتهم تجاه الماء ودوره في التطهير. وقد كشفت التـنقيبات التي أجريتْ في خربة قمـران عن نظامٍ لحفظ الماء يضـمّ عدّة أحواض، كـان يستـخدم بعضـها لإجراء طقوس الاستحـمام. ورغم أن هذا الاستحمام كان يمارَس يومـيًا، إلاّ أنّ النصّ عليـه كالتزام فـي كتب الطائفـة كان يعني طقسًا دينيًا في الأساس. ولا يسـمح لمن يقترف خطيئةً ما، ومَن لا يُعتبر طاهرًا لسبب من الأسـباب أن يمسّ الماء. ففي كتاب الضبط، وهو واحد من الكتب التي اكتشفت هناك[1] ورد ما يلي:

---

(١) كتاب الضبط، ألفصل الخامس، ألفقرة ١٣.

«لا يسمح للأشرار الدخول في الماء ليمسّوا طهارة المقدَّسين، إذ هم لا يتطهَّرون ما لم يتخلَّوا عن شرورهم، ذلك لأنّ النجاسة هي عند جميع أولئك الذين يخالفون كلمة اللّه».

لم تكن الطائفة تفهم أنّ الماء، بحدٍّ ذاته، هو الذي يطهّر الفرد الدنس. وإنما يطهّره التزامه بشريعة اللّه. والارتماس في الماء، في هذه الحالة، هو نوع من تأكيد الطهارة. يقول (كتاب الضبط) الذي أشرنا إليه:

«لا يمكن أن يُنظَّف بالمسح بالزيت، ولن تُطهّره كلُّ مياه التطيهر، ولن يتطهّر بالبحار والأنهار، ولن يُنظَّف بكلٍّ مياه. مَن كان غيرَ نظيف يظلُّ هكذا طالما هو يسيء إلى شرائع اللّه. ولن يتقوّم من جانب طائفة مجلس اللّه، بروح مجلس الحقيقة، الذي هو يدلّ على السبل التي يتعيّن على الفرد الخاطىء أن يسلكها لكي يتخلّص من خطاياه، وبذلك يمكن أن يرى نورَ الحياة. وبالروح المقدسة للطائفة، بحقيقة اللّه، يتطهّر من كلٍّ خطاياه، وبروح الاستقامة والتواضع يمسح إثمه. وباحترامه التعاليم الأخلاقيّة للّه وتواضعه تجاهها، يُنظَّف جسده، ويمكن حينئذ أن يُرَشَّ بمياه التطهير ويتقدّسَ بهذه المياه»[٢].

---

(٢) عزيز سباهي، المرجع نفسه، ص ٩٥-٩٦.

ويثـير الانتبـاه أنَّ أفراد الطـائفة كـانوا يستـحمّون قـبل وجبات الطعام، كـما يذكر يوسيفوس اليـهودي، وأنَّ مخطوطات قمران لا تشير إلى هذا الأمر... ربما يكون الأمر نوعًا من الاعتياد الذي يفرضـه التزمّت في المحافظة على الطهـارة؛ وربما يكون قد انبـثق من الحرص على النظافـة، بعـد نوبات العمل في الزراعـة والحرف؛ ثمّ تطـوّر من بعد إلى نوع من الطقـوس اليومـيّة التي كانوا يمارسونها.

هنا يمكـن أن نلاحظ أنّ الصـابئـة المندائيّين يحـبّـذون الانغـماس في الماء الجـاري قبل تناول وجـبات الطعـام في أيّام العيـد الدِّيني (بروانايا)، وهي أيّام خمـسة معـروفة لديهم باسم (البنجة).

ولكن تثار هنا مسألة تستدعي التأمّل:

لقد كان يوحنا المعمدان، الذي كان يعيش معهم، أو بالقرب منهم، يعمِّد في الماء الجاري، في نهر الأردن، وكذا يفعل الصابئة، كذلك فـإنّ طقوس التعمـيد التي كانت تجري في بابل أو مـصر، وربما غيرها أيضًا، كانت تجـري في الأنهار الجارية، فكيف أجاز الإسينيّون، أو طائفة البحـر الميت، التطهير بالأحواض التي أعدَّتْ لهذا الـغرض؟ يلوح أنّ الظروف السـياسيّـة والاجتـماعيّـة التي تميّزت بالاضـطهاد الفظّ الذي كان يـلحق بهم أرغمتـهم على أن

يلوذوا بهذه البقعة الصخريّة عند ساحل البحر الميت، وكانت هذه البقعة قد أستخدمت قبل بضعة قرون كملاذ لغيرهم، وقد بنى هؤلاء فيها صهاريج لحفظِ المياه. لكنّ الطائفة حين إلتجأت إليها أعادتْ بناء ما تهدّم منها، وأضافت إليها صهاريج أخرى، وبنت القنوات التي تغذّيها بالماء.

إنّ الاغتسال، بهدف التطهّر من الخطايا واكتساب رضا الآلهة، قد مارسته شعوبٌ عديدة. واليهوديّة لم تكن تجهل هذا الطقس الدِّيني، إلاّ أنّها لم تمارسه فعلاً في فلسطين.

أمّا في فلسطين فقد مارسه الأسينيّون، أو طائفة البحر الميت. إنّ تعاليم هذه الطائفة تنصّ على أن يتغمر المرء كليًا في الماء، ثمّ يشرع في رشٍّ الماء على نفسه. وهذا ما يماثل ما لدى المندائيّين. فرجل الدين المندائي يمسك برأس المتعمّد، ويغمره بالماء، ثمّ يرشّ عليه الماء بعد ذلك بيده.

إنَّ أقرب ماء جارٍ إلى خربة قمران هو الماء الذي ينحدر من عين فشقه إلى الجنوب، ويصبّ في البحر الميت، وهو يبعد قرابة الكيلومترين. أمّا نهر الأردنّ فيبعد عن خربة قمران بحوالي عشرة كيلومترات. ولذلك ربما كان يصعب عليهم الذهاب يوميًا إلى هناك بغية إجراء الطقس اليومي في الماء الجاري. لذلك استعاضوا عنه بماء حرصوا على «طهارته».

زد على ذلك أنّ رجال الدِّين اليهود كانوا يحرِّمون إجراء هذا الطقس في «الماء العكر والراكد لنهر الأردن»، ويرون أنّه غير ملائم للتطهير. غير أنّ يوحنا المعمدان قد تحدّاهم في هذا ربما تحقيقًا لنبوءة حزقيال إذ تنبّأ بانفجار ينابيع الماء الجاري في كل مكان (الإصحاح ٤٧)[٣].

على أيّة حال، فإنّ اختيار هذا الماء أو ذاك خضع إلى نوع من الاجتهاد أملتْه الدوافع الخاصّة بيوحنا المعمدان والظروف الخاصّة بالطائفة، لا سيّما وإنّ الطقس كان جديدًا من الأساس.

أمّا بالنسبة إلى الصابئة، فإذا صحّ القول بهجرتهم من هناك، واستقرارهم في جنوب العراق حيث المياه الجارية وافرة، يكون من منطق الأمور، ومنطق ديانتهم التي تنشد التطهير، أنْ يتمّ التعميد في الماء الجاري. ويذهب الأب دي فو، الذي شارك في التنقيب في خربة قمران والكهوف المجاورة لها، إلى أن الاحواض كانت تستخدم للاستحمام.

أمّا طقس التعميد «فمن المحتمل أنّه كان يتمّ في الماء الجاري في نهر الأردنّ، وهو ليْس بعيدًا جدًا. ومن الممكن أنّه كان

---

(٣) Mead, The Gnostic John the Baptizer, J.M. Watkins, London, 1924, p.8

يجري في مياه عين فشقه الأقرب، والذي يكفي أيضًا. وعلى أيّة حال فنحن لا نعتقد أنّهم كانوا يغمرون أنفسهم في مياه شربهم»[٤].

على أيّة حال لا يفوتنا ونحن ننهي أمر «التعميد» لدى الطائفة أن نشير إلى أنّ المندائيّين لا يعتبرون كلَّ الماء الجاري هو ما يهب الحياة والقدسيّة. إنّ جزءًا صغيرًا من الماء الجاري هو الماء الجاري هو الماء الحيّ. أمّا الأجزاء الأخرى، وتدعى «تاهمي» (أي عكر) فإنّها سائل عديم الحياة، يمرّ في طريقه باستمرار إلى مياه البحر المرّة[٥].

ويلتقي المندائيّون وطائفة البحر الميت (الإسينيّون) في النظرة المتشائمة تجاه العالم. كلاهما يعتبره عالمًا غير طاهر. كانت طائفة البحر الميت تعزل نفسها، عامدة، عن المجتمع اليهودي والناس المحيطين بها عامّة. كلُّ علاقة مع العالم الخارجي

---

(٤) غير أنّ وود، في دراسته الهندسيّة للأحواض ،يتوصل إلى أنّ تلك التي شيّدت في جانب منها سلالم للهبوط كانت تستخدم للطقوس الدينيّة لعدد كبير من الناس. أمّا الأحواض الصغيرة فكانت، كما يبدو، مخصّصة لطقوس خاصة، تتعلّق بأفراد؛ بينما هناك إلى جانب هذه، صهاريج خاصّة بالشرب وإعداد الطعام وأغراض الحياة اليومية.

(٥) الليدي دراور، الصابئة المندائيّون، بغداد (١٩٦٩)، ص ١٦٨.

علاقة غير طاهرة، وكلّ تماسٍ مع أحدٍ غريبٍ هو تدنيس يقتضي التطهّر بالماء، الأكل مع غيرهم محرّم، هجروا الهيكل اليهودي ولم يعودا يبجّلونه كما يفعل اليهود الآخرون. إنهم كما وصفهم بْلِين الأصغر (٦١-١١٣): «في العالم ولكن ليسوا في العالم». وقد كانوا يرون أنّ الهيكل يتمثّل فيهم وليس في غيرهم. وطريق الخلاص يمرّ عبر الانضمام إلى مجموعتهم. وانطلاقًا من هذه النظرة المتشائمة نحو العالم، اتّجهوا بقوّة، لا للإنعزال عنه وحسب، وإنما الزهد فيه أيضًا. والمندائيّة تنحو ذات المنحى. فالعالم بالنسبة إليها عالم ظلام، عالم دنس، لا يتمّ الخلاص منه إلاّ بصعود النفس الطاهرة إلى عالم النور، عالم النزاهة والعدالة (مشوني كشطا)، حيث السعادة الحقيقيّة، وهي لا تستطيع أن تصون طهارتها إلاّ إذا عزلت نفسها عمّن تبع العبادات الباطلة، وسلكت طريق النزاهة والعدالة وحبّ الناس واحترامهم[٦].

ومثلما لا تجيز طائفة البحر الميت الأكل مع مَن كان من غير الطائفة[٧]، لا تجيز المندائيّة الشيء ذاته. وإذا كان عامة الصابئيّة قد تجاوزت هذا التحريم اليوم، فإنّ رجال الدين المسنّين

---

(٦) عزيز سباهي، المرجع نفسه، ص ٩٨.

(٧) Driver, The Judaean Scrolls, The Problem and Solution, Oxford, Blackwell, 1966, p. 107.

الملتزمين بالأحكام الدينيّة بشدّة يمتنعـون عن مؤاكلة غيرهم، بل إنّ الأحكام الدينيّـة لا تجـيز لرجـال الدِّين الأكل حـتى مع عامّـة الصابئة، إلاّ إذا كـان الفرد قد تعمّـد ثلاث مرات متتالـية، وامتنع عن الإتيان بكلٍّ ما يبطل هذا التعميد.

لا يُحبّذ الأسـينيّون المسح بالزيت، ولا يرون فيـه تطهيرًا. ومع أنّ مـخطوطات البحـر الميّت لا تحـرم ذلك، إلاّ أنّ إشاراتهـا المتكرّرة للمسح بالزيت، علـى أنّه لا يمسح الخطايا، تدلّ على أنّها لا تحـبـذّه، وتسـتخـفّ به، وهو عين الموقف الذي يتّـخـذه الدِّين المندائي من الأمر.

«رَسـمي العـالي لا يجـري بالنار ولا يجـري بالزيت ولا يجري بالمسح. إنّه مرسوم بالماء الجاري العظيم، ماء الحياة الذي لا يُدرِك الإنسانُ قدرته»(٨).

وحين يتطهّـر الأسـيني فـي الماء يتـعـيّن عليـه أن يرتدي مـلابس بيضـاء خـاصّـة: رداء طويلاً يلّف حولـه زنّارًا خاصًـا. ويفعل المندائي الشـيءَ ذاته عند التعميد، إذ يرتدي ملابسَ بيضاء، تُعرف بـ «الرسـتة»، تتألّف من: قـميص (كسويا)، تخـاط عليه،

---

(٨) من النصّ الـذي يقـرأ لدى إجـراء (الـرشـامـة) أي الوضـــوء عند الماء الجاري.

عند أعلى فتحة الصدر، من الجهة اليمنى، قطعتان من القماش، تعرفان باسم (دَشّه)؛ وسروال (شروال)، يشدّ عند البطن بـ (تكه) أحد طرفيها مخيوط؛ وعمامه (برزنقا)، وقطعة طويلة من القماش تُلقى على الكتفين كالإشارب، وتدعى (النصيفة)؛ وأخيرًا الزنّار، الذي يلَفُّ حول الوسط، يدعى (هميانه)، وهي تحاك من الصوف الأبيض، بحساب خاصٍّ من حيث عدد الخيوط في شكل أنبوب مجوَّف. ويشترط في كلِّ قطعة من (الرسته)، وجود حافة من القماش الأصليّة(٩).

وتشدّد كلا الطائفتَين على عدم البوح بتعاليمهم الدِّينيّة إلى غيرهم، والحفاظ على سرّيّتها. يقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي: «لا يباح أيُّ سرٍّ من أسرارهم للغير حتَّى لو عُذِّب الواحد منهم حتّى الموت». ويعتقد فيوجيتا أنَّ ذلك ربما يعود إلى اعتقادهم بأنّ كتبَهم تتضمنّ حقائق كشَفَها اللّه لهم وحدَهم، بينما حُجبت عن الآخرين. ولذلك لا يصحّ كشفها(١٠). وهو عين ما يعتقد به المندائيّون.

---

(٩) عزيز سباهي، المرجع نفسه، ص ٩٩.

(١٠) Neil S. Fujita, A Crack in The Jar, New York, Mahwah, Paulist press, p. 159.

أخيـرًا تلتقي الطائفتـان في نظرتـهما الـثنويّة تجاه الظلام والنور، والخير والشر، وهـي ثنويّة شاعت بتأثير التعاليم البابليّة في المنطقـة بأسـرها. وتلتقـيـان أيضًا بالصـرامـة في مراعـاة المقاييس الأخلاقيّة العالية، كاحترام الناس، والنزاهة في التعامل، والالتزام بالعـدالة والحقّ، واحترام مَـن هو أكبر سنًا، والتّـقوى عامـّة. وهي قِيَم شاعت كثـيرًا في المنطقة أيضًـا بتأثير الفلسـفة الرواقيّة.

الفصل الخامس

الصابئة ويوحنا المعمدان

اقترن اسم يوحنا بن زكريّا (يهانا أو يهيا) في المندائيّة بالتعميد، كما أشارت اليه الأناجيل. والذين انبروا لدراسة طائفة، أو طوائف البحر الميت ومخطوطاتها، اختلفوا في أمره. هل انتمى إلى طائفة معينّة منها؟ هل كان في علاقة مع الإسينيّين؟ هل كوّن طائفة خاصّة به؟ هل أخذ عنها التعميد الذي مارسه أو أخذته عنه؟ أين انتهى اتباعه؟.. وقد رسمت له المصادر المختلفة صوراً متباينة، ونسبت له أدوارًا مختلفة.

يقول يوسيفوس: «كان بعض اليهود يعتقد أنّ جيش هيرودس قد دُمّر حقًا، بفعل الانتقام العادل للّه، ردًا على حكمه بالموت على يوحنا المعمدان، ذلك لأنّ هيرودس قد قضى على الأخير رغم أنّه رجل طيّب كان يدعو اليهود إلى الفضيلة، وإلى الالتزام بالنزاهة والعدالة في تعاملهم مع بعضهم البعض،

والتقوى تجاه اللّه. وكان يجمعهم للتـعميد وهكذا كان يعتقد أنّه، بتغطيسـهم (في الماء) سيـرضى عنهم اللّه، ليس باستخدامهم إيّاه طلبًا لمرضاة اللّه تجاه بعض الخطايا، وإنما لطـهارة الجسد، بقدر ما كـانت النفس قـد تطهّرت بالفـعل بالنزاهة. ولمّا كـان الآخرون يتجمـعون (أو يصبحـون منظّمين، إذ إنّهم كانوا يبتهـجون غايةَ الابتهاج عندما كانوا يستـمعون إلى أقوال يوحنا)، فإنَّ هيرودس كـان يخشى من أنَّ قـوَّتَه الفائـقة في إقناع الناس قـد تؤدّي إلى الثورة؛ إذ هم، كما يبدو، مسـتعدّون في كلّ شـيء للتصرّف وفق مشورته. ولذلك، بعد أن قلّب الأمر جيـدًا، عزم على أن يعتقله قبل أن يصدر منه أيُّ شيء يدفع إلى الثورة، وأن يقضي عليه بدلاً من أن يحدث ما يحدث، وساعتها يندم على ما فات.

وطبقًا لذلك، وبناءً على شكوك هيـرودس أُرسل مقيدًا إلى مـاخاروس القلعـة[1]. وقُـضـي عليه هناك. ورغم ذلك فـاليهـود يعتـقدون أنَّ الدمار الذي لحق بالجـيش كان انتـقامًا لمقـتله. إنّها إرادة اللّه للقصاص من هيرودس.

يتّضح من حـديث يوسيفوس هذا أنّ يوحنا كـان ذا تأثير كبـير على أعداد واسـعة من الناس، وأنّ دعوتـه كانت تَلقى آذانًا

---

(١) قلعة جبليّة في بيـريه وكانت تقع بالقرب من الضفة الشماليّـة الشرقيّة للبحر الأحمر.

صاغية، وأنّ الناس كانت تُقبل على تعميده عن رغبة وإيمان.

إنّ شهادة يوسيفوس هذه، ذات قيمة كبيرة، ليس فقط في تأكيد الدور الذي لعبه يوحنا فعلاً، وإنما أيضًا لفهم جوهر الدعوة التي جاء بها، وضدّ مَن كان يوجّهها. فهيرودس هذا كان ملك اليهود ورئيس الثيوقراطيّة التي كانت تحكم إسرائيل يومها، وإن دعوته استهدفتْ نشر العدالة والتعامل النزيه في المجتمع، وهو ما كان يفتقر إليه بدلالةِ تزايدِ الساخطين على الوضع آنذاك واضطرارِهم إلى الابتعاد عند البحر الميت وما وراءه.

إنّ الصورة، التي يرسمها المؤرّخ يوسيفوس اليهودي، هي، في الجوهر، عين الصورة التي يرسمها الأدب المندائي، كما سنرى لاحقًا.

اقترن إسم يوحنا بالتعميد، وعُرف بالمعمدان. فما هو هذا التعميد الذي جاء به، وماذا كان يريد به؟

أُخذتْ كلمة التعميد (Baptism) عن اليونانيّة (Baptein) وتعني الانغمار أو الارتماس في الماء. ويقابلها في الآراميّة: مَصبّوتا، أو مصبوتا، وهي تؤدّي ذات المعنى. وأصبحت تُطلق على كلِّ طقسٍ ديني يَجري مع الانغماس في الماء[٢].

---

(٢) كان التعميد في الماء أمرًا شائعًا في عديد من الأديان، لا سيّما في

لم يتحوّل التعميد إلى ممارسة ثابتة إلاّ مع ظهور الأسينيّين، وطبقًا لمخطوطات البحر الميت. فإنّه كان شرطًا لا بدّ من أدائه بالنسبة لمن يجتاز مرحلة معيّنة من مراحل الاختبار. ويلاحظ هنا أنّ الأسينيّين، كما يصفهم يوسيفوس؛ أو طائفة البحر الميت، كما تشير كتبهم، قد ذهبوا في طقس التطهير هذا أبعد مما كانت تنصّ عليه التوراة. ومع ذلك فإنّ بعض الباحثين لا يرى في التطيهر الذي كانوا يمارسونه «تعميدًا»[٣].

تميّز تعميد يوحنا بكونه قد مارسه مع اليهود وغير اليهود أيضًا، وأنّه كان يجري لمرّة واحدة. وكان يوحنا لا يُلزم

الفترة التي سبقت ظهور المسيحيّة، وما بعدها. ولا يزال هذا الطقس شائعًا إلى اليوم عند بعض الأقوام. فالهندوس في الهند يرون أن الاغتسال في نهر الكنج ينبغي أن يسبق أي عمل، وفي مصر العليا قديمًا كان على جميع السكان أن يتجّهوا صوب نهر النيل في ليلة رأس السنة الجديدة ويغوضوا في الماء البارد .وبعد أن يشربوا من ماء النيل تسع مرات بكفّ اليد يغسلوا أوجههم وأيديهم. ثمّ يغطسوا. وتصبُّ الأمهات على رؤوس أطفالهن وأيديهم الماءَ تسع مرات. وكذلك كان البابليون «يطهرون» الطفل الوليد بالماء. وكانت أديان الإغريق تفرض على الفرد طقوسًا مماثلة للتخلّص من الخطايا.

(٣) Rowleyh.H., The Baptism of John and Qumran Seet "New Testament Essays" ,Edited by A.J.B. Higgins Manchester University Press, pp. 218-228.

مَن يرغب في التعميد بالمرور بفترة إعدادٍ خاصة، كما كانت تفعل طائفة البحر الميت، وكان التعميدُ يجري في نهر الأردن أمام مرأى الجموع التي كانت تحتشد طلبًا لتعميده وما ينطوي عليه من غفران.

وتميّز تعميد يوحنا كذلك في كونه طقسًا دينيًا يَقدُم عليه الفرد طوعًا بغية التخلّص من خطاياه على يد شخص له منزلة كبيرة في النفوس. ولم يكن يمارسه من أجل تجنيد الناس في طائفة خاصّة به؛ إلاّ أنّ أعدادًا متزايدة من الناس، يهودًا أو غيرهم، ينسبون أنفسهم إليه، ويلتزمون بوصاياه، ويعدّون أنفسهم من أتباعه. وقد ظل كثير من هؤلاء الأتباع يسير على نهجه حتّى بعد أن قُضي عليه. لكننا لا نملك من الشواهد التاريخيّة ما يدلُّ على أنّهم واصلوا التعميد، والكيفيّه التي كانوا يجرون فيها هذا التعميد، ومن هو الذي تولّى المهمّة بعده.

تحدّثنا المصادر المسيحيّة أنّ مثل هؤلاء الأتباع وُجدوا في القرن الأوّل في أماكن بعيدة عن فلسطين. ففي أفَسس، وهي تقع في الإقليم الجنوبي الغربي للأنضول، وُجدت جماعة من هؤلاء، كما استقرّتْ جماعة أخرى منهم في الإسكندريّة في مصر(٤).

---

(٤) سفر أعمال الرسل ١٨/ ٢٤-٢٥.

ولكن، مـاذا حلّ باتبـاعه الذين بقـوا في فلسطين؟ من المؤكـد أن بعضهـم قد اعتنق المسيحـيّة أسوةً ببعض تلامـيذه الأوائل الذين انضموا إلى يسوع المسيح، وأصبحـوا من المقرَّبين إليه، كما يذكر الانجيل. ولكن ماذا عن الذين احتفظوا بخطِّه؟ هل كوّنوا فرقةً من الفرق التـي مارست التعـميـد عند البحر المـيّت ونهر الأردن؟ أو انضمّوا إلى ما كان قائمًا منهـا كالأسينيّين، أو طائفة البحر الميّت، أو الحسح؟. وهل أصبحوا يُعرفون باسم خاص؟

إنَّ المصـادر المسيـحـيّة، التي تنـاولت هذه الفرق، عـدّدت أسـمـاء مُـعـيّنة، مـثل: الـهـيـمـيـروبابْتـستْ، والمصـبـوثيِّين، والناصـورائيّين، والسامـبسـايّين، والجليليِّين. فهل يكونـون قد أضـفوا على أنفـسهم واحـدًا من هذه الأسـماء، أو دعـاهم الذين بحثوا بشأن هذه الفرق بواحدٍ منها لسببٍ ما؟

ليس هناك، بالطـبع، ما يمنـع مثل هذا الافـتـراض؟ ومِن المحتمل أنّهم بعـد أن فقدوا معلمهم لجـأوا إلى التماسك في شكل فرقة، وطوّروا مـا كان يدعوهم إليه في صـورة طقوس وتراتيل، وطوّروا التعميد كطقسٍ مميّزٍ لهم.

على أيّة حال، قد تكون هذه التسميات لمسمّى واحد، لفرقة واحدة ضـمَّتْ أتباع يوحنا، فلقـد وردت إشارات مقـتضـبة لدى الآباء المسـيحـيّين الأوائل إلى الهـيـميـروبابْتـستْ في معـرض

الحديث عن أتباع يوحنا. ففي العظات التي تُنسب إلى إكليمنضوس الإسكندري (حوالي ١٥٠-٢١٤)، تذكر العظة (٢/ ٢٣) إنّ يوحنا المعمدان واحد من الهيميروبابْتستْ. بيد أنّه لا يذهب أبعد في توضيح هذه العلاقة(٥).

وهناك رأيٌ يقول إنّ الصابئة (المندائيّين) من بين التيارات المسيحيّة الأولى التي اختلفت مع الكنيسة المسيحيّة الرسميّة، وسارت في طريقها الخاص من بعد. والمبشِّرون الغربيِّون وغيرهم، الذين وفدوا إلى البصرة في القرن السادس عشر، كانوا يحسبون الصابئة مسيحيّين من أتباع يوحنا المعمدان. مثل هذا الاعتقاد كانت له جذوره القديمة التي تعود إلى القرن الأوّل الميلادي، حين كان يرى دعاة المسيحيّة إلى أتباع يوحنا المعمدان كمسيحيّين بالضرورة، فيما كان الواقع يخالف ذلك منذ البداية. إلاّ أنّ الواقع عكس ذلك تمامًا، فإنّ أتباع يوحنا المعمدان كانوا على موقف مناوئ للمسيحيّة، وكانوا يبدون معارضتهم لاعتبار يسوع هو المسيح الموعود.

إنّ الأدب المسيحي الأوّل الذي خلفّه آباء الكنيسة الأولون، وإنْ لم يُعطِ صورة واضحة ومفصّلة للمناقشات التي كانت تدور

---

(٥) عزيز سباهي، المرجع نفسه، ص ١٢١.

بين أتبـاع يوحنا وأتباع يســوع، إلاّ أنّه يظلّ نافعًـا بالنسبـة إلى الموضــوع الذي ندرســه. فطبعًـا لما ترويه مــواعظ اكلمنضــوس الاسكندري، إنّ مناقـشـات كـانت تجـري بين الجـمـاعـتين في الإسكندريّة حــول مَن هو المسيح ويقول: «واعــجبًـا أنّ واحدًا من تلامــذة يوحنا يصــرّ على أنّ يوحنا كـــان هو المســيح وليس يسوع»[٦].

وفي الاعــترافات المــنسوبة إلى إكلمنضــوس ذاته يرد في (١ : ٥٤): «أجل حــتى أنّ بعض تلامــذة يوحــنا، ويبـدو أنّهم من كبار أتــباعه، قد عــزلوا أنفسهم عن الناس وادّعوا أنّ مــعلمهم هو المسيح».

وجاء في الاعــترافات أيضًــا (١ : ٦): «لاحظ أنَّ واحدًا من تلامذة يوحنا يصرّ على أنَّ يوحــنا هو المسيح، وليس يسوع وكلّ الانبــياء. ويقــول: إذا كان هو أعظم من الجـموع، إذن، ينبـغي أنْ يُنظر إليه كأعظم من موسى ومن يسوع نفسه. ولكن، إذا كان هو أعظم من الجميع، إذن، ينبغي أن يكون هو المسيح»[٧].

---

(٦) Gilles Quispel, Qumran, John, and jewish Christianity, John and Qumran, edit by J.H. Charles Worth, Geoffery, London, 1972, p.141. Walter Wink, Ibid, p. 100-101.

(٧) Walter Wink, Ibid., p. 100-101

يتـبـيّن من هـذا أنّ جـدالات حـامـيـة كـانت تجـري بين الجمـاعتين، وأنّ أتباع يوحنا كانـوا يرفضون نسبـةَ المسيح إلى يسوع، ويعتبرون الدعوة لذلك دعوة باطلة. ولعلّ الاشارات التي ترد في الأدب المندائي التي تشكّك بوصف يسوع بالمسيح، وترى فيه «مسيحًا دجالاً»، هي صدى لتلك المناقشات التي كانت تجري بين طرفين هما شهـود عيان لما كان يجـري آنذاك، أي في بواكير الدعوة للمـسيحيّة سـواء في فلسطين، أو في الإسكندريّة، أو في أفسس، كما يبدو أنّ أنجيل يوحنا الذي كُتب في أفسس في نهاية القرن الأوّل قد تأثر بتلك المناقشات.

إذا كان الإنجـيل والكتابـات الكنسيّـة المبكرة لم تعطنا من الشواهد مـا يكفي لتوضـيح كثيـر من نقاط الغـموض التي لَفَّت شخصيّة يوحنا المعمدان، فإنّ الادب المندائي –والحقّ يقال– ليس فقط لم يتقذْنا من التشـوّش، بل زاد فيه من بعض الجوانب، حتى دفع هذا الأمـر بعضَ البـاحـثين إلى نفي العـلاقـة مـا بين يوحنا (يحيى) والمندائـيّين من الأساس، ظنًا منهم أنّهم بهـذا يكونون قد حلّوا الأشكال ومـا ينطوي عليـه من جوانب تقـتـضـي المراجعـة والتدقيق، مرضين بذلك ضميرهم الديني على حساب الموضوعيّة العلميّة[٨].

---

(٨) يقـول والتر ونك : إنّ يحـيى لا يظهـر في نصوص الطقـوس والسحـر

أنت هو عارف الحياة

هو أنت عرف الحياة

وحينما لا تغفر خطايانا وآثامنا وحماقاتنا وأغلاطنا ومساوئنا سوف نقف أمامك يا «مندا دهيي» مذنبين

ونحن عبيد لك، وكلّنا مخطئون،

وأنت السيّد الذي كله رحمة،

أمامك كلُّ الأيادي سارقة، وكلُّ الشفاه كاذبة، حتّى لو كانت مياه الماء الجاري تزكّيهم»

.....»[١٢].

وسوف نعود إلى علاقة المندائيّة (الصابئة) بيوحنا المعمدان في مكانٍ آخر من هذا البحث، سيّما في نقطة التعميد والماء الجاري.

---

(١٢) وفي نص آخر من نصوص التعميد يُقال: أمامك كلّ الأيادي جانيه، وكل الشفاه كاذبة، برغم أنّ مياه النهر الجاري تزكّيهم. أمامك عارف الحياة «مندا دهيي»... نحن العبيد الذين كلنا خطايا وأنت السيّد الذي كلّه رحمة.» (عن عزيز سباهي، المرجع نفسه، ص ١٢٦)...

الفصل السادس

ألصابئة والحسح

قد أثار هذا الموضوع ابنُ النديم (ت ٩٩٥) في كتابه الشهير «الفهرست» بشأن «المغتسلة»، أي الصابئة، في منطقة البطائح، أي في منطقة ميسان (العمارة) جنوب العراق.

قال ابن النديم: «هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح، وهم صابة البطائح. يقولون بالاغتسال، ويغسلون جميع ما يأكلونه. ورئيسهم يُعرف بالحسح»[1].

---

(١) إبن النديم، ألفهرست، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨، ص ٤٧٧. ونشير هنا إلى أن طبعة فلوجل الألمانيّة أوردتْ اسم من وصفه إبن النديم برئيس الطائفة على هذا النحو: الحسح وليس الحسيح. وطبعة فلوجل هي المفضّلة لدى الباحثين. وقد أثار خلو الاسم من حروف العلة والنقاط بعض التكهنات في تفسيره. وذهب بعضهم إلى أنّه «المسيح». وحدث التحريف بفعل الاستنساخ... إلخ .والاسم مأخوذ عن

غير أنّ ملاحظة ابنِ النديم هذه ليست هي وحدها السبب في البحث عن العلاقة ما بين هاتين الطائفتَين إن وجدت، وإنما هناك ما هو أهم منها، كما سنرى.

لم يزوِّدْنا ابن النديم بما ينفع في فهم علاقتهم بالحسح سوى قوله إنّ رئيسَهم يُعرف بالحسح. ولم يدلَّنا على المصدر الذي اعتمده في هذه المعلومة. هل كانوا هم يقولون بذلك؟ هل الأقوام التي تجاورهم تردِّد ذلك؟ أو أنّ المصادر المسيحيّة التي اعتمدها في الكتابة عنهم ذكرتْ ذلك؟ لا يوضح ابن النديم من هذه شيئاً. إنّ الصابئة، سواء في تراثهم المدوَّن، أو في تراثهم الشفوي، لا يشيرون من قريب أو من بعيد إلى الحسح هذا. ولم يرِدْ لديهم إسمٌ قريبٌ من هذا الإسم. ومع ذلك فملاحظة ابن النديم ليست هي الوحيدة.

وُجِد أتباع الحسح في الجانب الشرقي من نهر الأردنّ، في القرن الأوّل وما بعده. وقد اتَّخذتِ الطائفة من التعميد ركناً

الأراميّة، ويعني القوّة الخفيّة. وأورد كتّاب المسيحيّة الأوّلون والمؤرِّخون القدامى اسمه بصيغ متباينة في اليونانيّة. وقد اعتمدنا على براندتْ، أحد كبار مَن كتبوا عن المندائيّة، في ما أورده عن أتباع الحسيح. W. Brandt, El-Kesaites, Encyclopedia of Religion and Ethics.

أساسيًا في دينها وطقوسها. وهي فرقة يهوديّة جاءت بدعوى إعادة تجديد اليهوديّة.

وعلى خلاف الطوائف السابقة التي أشرنا إليها فإنّ هذه الطائفة كانت تبشّر بدينها. ونشطت لهذا الغرض في رومة وقيصريّة وسورية. ووجَدتْ لها بعضَ الأنصار. وظلّتْ تواصل نشاطها حتّى القرن الثالث الميلادي.

والمعلومات بشأن هذه الطائفة مستمدّة من كُتّاب الكنيسة الأُوَل: هيبوليتوس (القرن الثاني)، وإبيفانيوس (القرن الرابع)، وقد اعتمدا في ما كتباه عن الحسح على نسخةٍ من كتابٍ نُسب إليه، جاء بها إلى رومة أحدُ أتباعه، السبيادس (Alcibiades)، ليستعين بها في التبشير لدعوة الحسح في نهاية العقد الثاني من القرن الثالث. وقد تضمّنتْ مقدِّمة الكتاب ملاحظةً تقول: إنّ الحسح قد تلقّى الكتاب من غربِ الصين، وأودعه عند شخصٍ يدعى صوبياي، وأنّ ملاكًا هو الذي أوحى بالكتاب.

من هذه الملاحظة ذهب بعضهم إلى أنّ هناك علاقةً ما بين صوبياي هذا والصابئة، للتماثل بين الإسمَين. غير أنَّ وَالتر براندتْ يذهب إلى أنَّ واضع الملاحظة لا يَعرف، كما يبدو، من أين جاء الكتاب. وقد أراد منها التأثير على القارئ بالإيحاء له أنَّ مصدر الكتاب قصيٌّ جدًا. والكتاب، كما يرى براندتْ، قد جُمع

بعد وفاة الحسح، وأنّه كان في الأصل مقولاتٍ وتوجيهاتٍ جاءت كأجزاء منفصلةٍ عن بعضهـا، زعم واضعُها أنَّها جاءتْه بوحيٍ من السماء، ثمّ جمَعها بعد وفاته في صحائف تداولُها أتباعه.

إنّ جُلّ المعلومـات عن الحسح قـد وردتنا، كما أشـرنا من خلال هيبوليتس وإبيفانيوس، أسقف سلامينا في قبرص، وإنّهما اعتمدا الترجمة اليونانيّـة للكتاب. ويلوح أنَّ الترجمة كان يشوبها الغـموض، حتّى إنّـهما كـانا يعتـمدان علـى الحزر، كمـا يلاحظ براندتْ، لحلٍّ الغـموض في النصوص. وكـان أنْ نَجَمَ عن هذا أنْ وقعا في عديد من الأخطاء. ناهيك عن تحـاملهما على الطائفة التي اعتبراها فرقةً من الهراطقة.

ألمعـروف عن الحسح أنّه كـان يهوديًا، وأنّ الأسـينيّين، أو جمـاعة منهم، والإبيـونيّين (المسيـحيّين الفقـراء)، وهـم من أصل يهودي قد قبلوه كنبيٍّ لهم، أو أنّهم اعترفوا بتعاليمه.

كانت دعوة الحسح تقوم على التمسّك بالشريعة اليهوديّة، والتقـيّد بأحكام السـبت، وممارسة الخـتان. وكـان يقرّ الزواج. وكان يصرّ على التوجه نحـو أورشليم في الصلاة. وحرّم اتّخاذ الشرق قِبْلَةً لدى الصلاة[٢].

---

(٢) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٠٦.

ويُعتقد أنّ أبيفانيوس هو الذي نسب إليه تحريمَ أكْل اللّحمِ وجوازَه فقط عند مشـاركةِ الوثنيّين في أكْل القرابين. وكان يؤمن بإلهٍ واحدٍ هو إلهُ اليـهود. ويؤمن بيوم الحسـاب. وكان يَروي أنَّ آدم هو حلقة الوصل بين إله السماء وبشر الأرض. وكان يشارك اليهود في اعـتقادهم بوجود طبقـاتٍ مختلفة للملائكة، واعـتباره نجوم القطاع الشـمالي في السماء قرينة للأبـالسة. وقد زعم أنّه يتقن الفَلك ويحصن قراءة الطالع[٣].

إنّ الشيء الرئيسـي في ديانة الحسح هو التـعميـد. وكان يبـشر بأنّ الإنغـمار الكلّي في مـاء النهر، أو الينبـوع، دون خلع الملابس، هو الوسيلة لـلتخلّص من جمـيع الخطايا. وكان يوصي بأنْ يمارس الطقـس « باسم الله العظيم والأسـمى»، مع قـراءة التراتيل. ويعلن المرء قـبل انغماره بالماء الإمـتناعَ من كلِّ الخطايا والسلوكِ غيـرِ المستقـيم. وكذا الأمر عند طلب الشـفاء من المرض والاضطرابات المـاثلة، ومن يتـعرّض إلى عـضّـة كلب كليب، أو حـيـوان سامّ، أو لدى الإصـابة بالسلّ الـرئوي، أو من «تُداخِلُهم الأرواحُ الشريرة».

في حالـة كهذه، يُطلـب من الفرد أن يغـمر نفسَـه في الماء البارد، في نهرٍ، أو في ينبوعٍ، دون أن يـخلع ملابسه، أربعين مرَّةً

---

(٣) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٠٧.

خلال سبعة أيّام. وإذا كان عاجزًا عن ذلك فيجوز أن يؤدّيَها شخص آخر باسمه، ويتلو التوسّلات بالنيابة عنه، واشترطت التعاليم من بعد أنْ يجري الطقس بحضور شاهد وبقَسَم. ومن يمارس هذا الطقس ينطق بهذا القسم مخلصًا[٤].

لقد وجدتْ دعوة الحسح أنصارًا بين مَن كانوا يسمّون (الذين يخافون الله) من الوثنيّين، وذلك من اليهود؛ كما وجدت دعوته استجابةً لدى الجماعات التي كانت تمارس التعميد، ولدى من تبقّى من الإسينيّين، والناصورائيّين، والنازاريّين. وكلتاهما كانتا تعيشان شرقي نهر الأردنّ أيام المسيحيّة الأولى.

وكان الحسح يُوصي الذين يتعرّضون إلى الاضطهاد أن يبدوا استنكارهم لمعتقداتهم باللّسان فقط على أن يبطنوا تمسّكهم بها، وذلك دفعًا للمتاعب التي يتعرضون لها[٥].

وبعد وفاة الحسح واصل أتباعُه التبشير بدينهم. وترجموا كتابهم إلى الإغريقيّة. ويلاحظ أنَّ تعديلاً قد أُدخل، إذ سمح لمن يُخطئ أن يتعمّد مرّة أخرى[٦].

---

(٤) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٥) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٠٨.

(٦) للاستزادة حول الحسح يراجع بالاضافة إلى ما أورده والتر براندتْ في مادّة أتباع الحسح (El-kesaites) وكتابه أيضًا حول الحسح

إنّ الأمر الأساسي الذي دفع إلى الاعتقاد بتماثل الصابئة وأتباع الحسح هو التعميد في النهر، وما يقترن به من شعائر. فكلا الطائفتَين تمارسان التعميد كتطهير من الخطايا. فإذا كانت الأديان الأخرى ترى في تقديم الأضاحي أو الكفّارات وسيلةً لطلب الغفران، فإنّ الطائفتين تريان الوسيلة إلى ذلك هو التعميد في الماء. وإذا كان التعميد كطقسٍ ديني شاع بين أديان تلك الفترة، فإنَّ الطائفتين تفرضان إعادة التعميد عند ارتكاب الخطيئة. والصابئة يدعون إلى التعميد مع كل خطيئة (ولكنّ الخطيئة المندائيّة لم تعد تلك الخطيئة الأخلاقيّة، أو ارتكاب المعاصي ممّا يخالف الأحكام الدينيّة وحسب، إنما أصبحتْ تعني الخروج على تفصيلات الشكليات في الطقوس والشعائر التي غدتْ مع الزمن كثيرة جدًّا، وحوّلت هذه الطقوس إلى ممارسات شكليّة محضة[٧].

ويمارس التعميد لدى الطائفتين بالملابس، ولكن إذ تشترط المندائيّة أن يلبس المتعمّد لباسًا دينيًا خاصًّا هو الرستة، وقد وصفناها آنفاً، فإنّنا لا نعرف شكل الملابس ولونَها التي يتعيّن

مجموعة من المصادر الأخرى التي أوردها في نهاية بحثه في أنسكلوبيديا الدِّين والأخلاق ،كذلك يمكن مراجعة G. R. Driver, The Judaean Scrolls, Oxford, 1965, p.p. 504-505.

(٧) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٠٨.

على أتباع الحسح لبسها أثناء التعميد. وإنْ كنّا نعتقد أنّها بيضاء وقريبة من لباس الأسينيّين[٨].

وكلا الطائفتين تلتزمان بأحكامهما الدينيّة التي تشترط أن يستشهد المتعمّد بشاهد على صحة الطقس الذي يمارسه، لكنّهما يختلفان في تعيين هذا الشاهد. فالصابئي، وهو يتوضّأ، يجلس إلى الماء الجاري، ويمدّ يده اليمنى ويقول: «ألماء الجاري الذي تعمدّنا فيه سيكون شاهدَنا الذي لا نغيّره في رسمنا، ولا نبدّل كلمتَنا الطاهرة». ويشار في التعميد إلى اليهثا (خبز خاص يعدّ للتعميد) والممبوهة (ماء يسقى إلى المتعمّد أُخِذ من الماء الجاري) ويوم الأحد والصدقة كشهود أيضًا. أمّا طائفة الحسح فتلتزم بالشهادة إلى جانب الماء بالخبز والملح والأرض والسماء والرياح والأرواح المقدسة وملائكة الصلاة[٩].

لكنَّ الطائفتَين تختلفان بجملة من الأمور أيضًا. فالحسح يلزم بالختان فيما تحرّم المندائيّة هذا. والأولى تشدّد بالتمسك بالسبت، فيما تمجّد الثانية يوم الأحد. يمارس أتباع الحسح صلاتهم وقبلتهم أورشليم، بينما يتّجه المندائي في صلاته صوب الشمال.

---

(٨) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٠٨.

(٩) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٠٩.

إنّ التماثل بين الطائفتَين ليس من القوّة بحيث يدفع إلى الاعتقاد بأنّ المندائيّين كانوا من أتباع الحسح في الأصل، أو أنّهم طوّروا معتقداتهم عن معتقداته، حتّى في تلك النقاط التفصيليّة التي ألمحنا إليها. ليس هناك ما يدلل أنّ الصابئة قد اقتبسوها من الحسح. وهذا ما يدفع إلى تباين وجهات النظر بشأنها. ففيما يذهب جوزيف توماس، الذي درس الحركة التعميديّة في سورية وفلسطين، عهد ذاك إلى الاعتقاد بتطوّر المندائيّة عن الحسح(١٠)، يذهب إريك سيكلبرغ، الذي درس التعميد الصابئي دراسةً تفصيليّة مقارنةً إلى أنّ المندائيّة لم تقتبسْ تعميدها عن الحسح، وإنّما التماثل هنا يعود إلى أنّ كليهما قد استقى الأمر من أصلِ بيئة واحدة(١١).

---

(١٠) Tomas J., le Mouvement Baptiste en Palistine e syria, Gemblaux, 1935, p. 252.

(١١) Eric Segelberg Masbuta, Studies in the Ritual of the Mandaean Baptism, Upsala, Sweden, 1958.

ويشيع هـذا الإسم في أدبهم حتّى إنّ دراور أصـبحتْ في دراساتها المتـأخرة، تميل إلى إطلاق التسميـة على الطائفة بوجهٍ عام، بدلاً من «المـندائيّين» التي لا ترد في أدبهم كثـيرًا. لقـد جذب التـمــاثل في الإسم بينهم وبـين من أشـار إليـهم أبيــفـانوس والآخرون اهتمامَ الباحثين، واستنتجوا منه نتائج متعارضة

فماكوخ (R. Machch) يرى أنَّ مَن يشير إليـهم أبيفانوس هم طائفة واحدة في الأصل وُجـدت في شرق نهر الأردنّ منذ ما قبل المسـيحيّة، وأنّهـا انشقّت عن اليهـوديّة منذ ذلك الحين. لكنّها انقسمت على نفســها. فقسمٌ اعتنق المسيحيّـة وأصبحوا منذ ذلك الحين ضمن مَن عُـرفوا بإسم اليهـود–المتنصّرين، وربما هم من أشيـر إليهم باسم النصـارى، بينما هاجـر القسم الثـاني باتّجاه الشـرق حـتّـى اسـتـقـرّوا في جنوب وادي الرافــدَين مكوِّنين المندائيّين. ويـرى أنَّ هجـرتهم هذه تمّت في مـطلع القـرن الأول الميلادي، أيّام حكم الملك الفارسي (الفـرثي) أرتبانوس الثالث، أي قـبل التـدمـيـر الأوّل لأورشليم الذي جـرى عــام ٧٠ م.، على يد الأمبراطور الروماني طيطس. ويذهب أيضًا إلى أنّهم توصّلوا إلى تطوير أبجديتــهم عن النبطيّة منذ أن كـانوا في فلسطين، ونقلوها معهم إلى وادي الرافدَين ليدوِّنوا معتقداتهم فيها من بعد[٢].

---

(٢) C.F.Kurt Rudolph, Prolblems of a History of the

الفصل السابع

الصابئة وطوائف أخرى

يشير كُتّاب المسيحيّة الأوائل إلى أنّ أتباع الحسح، أو مَن كانت لهم علاقة بالحسح، لم يكونوا جميعًا من اليهود أو المسيحيّين، بل وجد بين هؤلاء من لم يكن مسيحيًا، أو يهوديًا، أو إغريقيًا؛ وإنما موحِّدون وحسب. وكانوا يكذّبون كلاً من العهد القديم والعهد الجديد. وكانوا يمارسون التعميد، ويمجدّون الماء، ويرَون فيه أصل الحياة، ويؤمنون بيوم الحساب، ويفضّلون الزواج المبكِّر، ويعيبون العزوبة.

فقد كتب أبيفانوس، وهو يغادر فلسطين عام ٣٦٧م، أنّه سمع عن طائفة تعيش في المنطقة الواقعة إلى الشرق من الأردن والبحر الميت تدعى ساميساايين، وهم يؤمنون بإله واحد، ويعبدونه بالتعميد، ويتباهون بأنّ معلمهم هو الحسح، وهم ليسوا باليهود ولا بالمسيحيين. ويندمج معهم كلٌّ من

الناصورائيّين (Nasoraeans)، والنازاريّين (Nazaraeans)، والأوسيّين (Ossaeans).

وهنا يشير أبيفانوس بتحديد إلى أنّ الطائفة الأخيرة قد نبذتِ اليهوديّة (الآن)، ولم تعد تعيش كيهود. لا نعرف مدى دقّة الأوصاف التي يوردها أبيفانوس بشأن هذه الطوائف، غير أنّ المهمّ هنا أنّه يكتب عن الطوائف التي تأثرت بالحسح، وعن نبذة الأسينيّين لليهوديّة في زمانه، أي في النصف الثاني من القرن الرابع. ولذا يكون قد أعطانا دليلاً على أنّ هذه الطوائف كانت تعيش آنذاك في الأردنّ، في الوقت الذي يكون فيه المندائيّون يعيشون في براث ميشان (ميسان) في جنوب العراق. وفي هذه الحالة، إذا كانت هناك علاقة روحيّة، أو علاقة نسب، فإنّها لا بد أن تعود إلى مرحلة أقدم[١].

وقد تركّز اهتمام دوائر البحث على الناصورائيّين. إنّ الأدب المندائي يطلق على الطائفة إسم الناصورائيّين، ويسمّي ديانتهم بالناصوراثا. وبتدقيق أكثر إنّه يطلق هذه التسمية على تلك المجموعة التي تتبحّر بالمعتقدات الدينيّة للطائفة من رجال الدين وغيرهم.

---

(١) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١١٠.

ويشيع هذا الإسم في أدبهم حتّى إنّ دراور أصبحتْ في دراساتها المتأخرة، تميل إلى إطلاق التسمية على الطائفة بوجهٍ عام، بدلاً من «المندائيّين» التي لا ترد في أدبهم كثيرًا. لقد جذب التماثل في الإسم بينهم وبين من أشار إليهم أبيفانوس والآخرون اهتمامَ الباحثين، واستنتجوا منه نتائج متعارضة

فماكوخ (R. Machch) يرى أنَّ مَن يشير إليهم أبيفانوس هم طائفة واحدة في الأصل وُجدت في شرق نهر الأردنّ منذ ما قبل المسيحيّة، وأنّها انشقّت عن اليهوديّة منذ ذلك الحين. لكنّها انقسمت على نفسها. فقسمٌ اعتنق المسيحيّة وأصبحوا منذ ذلك الحين ضمن مَن عُرفوا بإسم اليهود-المتنصّرين، وربما هم من أشير إليهم باسم النصارى، بينما هاجر القسم الثاني باتّجاه الشرق حتّى استقرّوا في جنوب وادي الرافدَين مكوِّنين المندائيّين. ويرى أنَّ هجرتهم هذه تمّت في مطلع القرن الأول الميلادي، أيّام حكم الملك الفارسي (الفرثي) أرتبانوس الثالث، أي قبل التدمير الأوّل لأورشليم الذي جرى عام ٧٠ م.، على يد الأمبراطور الروماني طيطس. ويذهب أيضًا إلى أنّهم توصّلوا إلى تطوير أبجديتهم عن النبطيّة منذ أن كانوا في فلسطين، ونقلوها معهم إلى وادي الرافدَين ليدوِّنوا معتقداتهم فيها من بعد[٢].

---

(٢) C.F.Kurt Rudolph, Prolblems of a History of the

وتنحو الليدي دراور هذا المنحنى في كتابها «آدم الخفي» الذي نشرته عام ١٩٦٠، ولكن بتردد، ودون أن تتخلّى عن اعتقادها بالعلاقة مع الحسح[٣].

لكن ياموجي يقف من هذه المماثلة موقف المعارض. فهو أوّلاً يأخذ بالاعتبار ملاحظة أبيفانوس في وجوب عدم الخلط بين الـ Nasarenes، وهي طائفة كانت يهوديّة-مسيحيّة سابقًا والـ Nazorenes، وهي طائفة مسيحيّة واضحة. ويلاحظ ثانيًا أنّ الطائفة الأولى تتميّز بكونها تمارس الختان، وتتقيّد بأحكام السبت، وتنكر أن تكون أسفار التوراة الخمسة الأولى قد تضمّنت شريعةَ موسى، وإنّهم رفضوا الفلك والقضاء والقدر، وامتنعوا عن أكل اللحم، ورفض تقديم الأضاحي الحيوانيّة...

ومن بين هذه كلّها فإنّهم لا يتّفقون مع المندائيّة إلاّ بالآخرة. والأهم من هذا أنّها ليست فرقة تعميديّة. ويرى أنّ محاولات المطابقة تستند إلى مجرّد التماثل في الاسم. وهو أساس ليس بالمتين[٤].

Development of the Mandaeans Religions ("Studies in the History of Religion" XII Leiden, 1967, p. 583-596.

(٣) E.S. Drower, The Secret Adam, Oxford, Clarendon Press, 1960, p. 95, 101.

(٤) Edwin M. Yamauchi, Gnostic Ethics and Mandaean

وطالما كنّا في ميدان لا يخلو من تكهّنات الباحثين نطرح للتحرّي الحقيقيةَ التالية، باحثين عمّا تنطوي عليه من دلالات قد يُدخلها البعضُ في ميدان التكهنات.

لقد كان من بين المخطوطات التي عثر عليها في البحر الميت مخطوطة قصيرة تشكو من تلفٍ في بعض عباراتها، تُعرف باسم صلاة نابونيدس. ونابونيدس، كما نعلم، كان آخر الملوك الكلدانيّين، وكان قد اعتكف في واحة تيماء، شمال الحجاز، لتأمّل المعتقدات الدينيّة لعبادة إلهِ القمر بهدف تطويرها بما يتّفق والتيّارات التوحيديّة التي شرعتْ تنمو أكثر فأكثر.

والمخطوطة من الكهف رقم ٤ هذه، كما يقول ميليك وفريدمان ويوليوس ليفي كانت جزءًا من التراث الشعبي الذي استقى منه من وضع سفر دانيال في العهد القديم قصّته التي أوردها في الإصحاح الرابع، واستبدل فيه شخص نابونيد بنبوخذنصّر. إنّ هذه الصلاة تؤكّد الاتجاهات التوحيديّة التي كانت آخذةً بالنموِّ في بابل وحرّان والواحات الأراميّة-العربيّة المحاذية للجنوب الفلسطيني.

Origins, Ibid., p. 60-62.

إنّ وجـــود هذه المخـطوطة، وآثار آرامـــيـــة أخـــرى مع مــخطوطات البحـر الميت، يدلّ على أنّ الطوائـف هناك لم تقتـبس أفكارها ومعـتقداتهـا من التراث اليهـودي وحده، وإنما مِن تراث الأقوام الأخـرى أيضًا. بل ويذهب فـريدمانD. N. Freedman ، إستنادًا إلى صلاة نابونيد هذه، إلى أنّ طائفة قمران كانت تقترب من التراث البابلي أكثر مما يفعل سفر دانيال(٥).

إلى هنا يقف بنا البحث عن الأصول والبدايات التي توحي لنا بأصل المندائيّة الصابئة، وعلاقتهـا بالفرق اليهوديّة-المسيحيّة التي استوطنتْ عند البحر الميت ونهر الاردنّ.

---

(٥) G. R. Driver, Ibid., p. 173-174. وحـول نص الصـلاة راجع Millar Burrows, The Dead Sea Scrolls, Michegan, Baker Book House, 1978 p. 400

ألفصل الثامن

ألصابئة والغنوصيّة

ألغنوصيّة، حـركة فكريّة، ودينيّة، متـعدّدة الأوجه، برزت منذ القـرن الأوّل الميلادي، وإن كـانت جذورُها تمتـدّ إلى ما قـبل ذلك، كما يرى بعض الباحثين. واتّسع نشاطها في القرون الأولى للمسـيحـيّة، لا سـيّما في القـرنين الثاني والثـالث، وإلى مناطق واسعـة في العالم القـديم، حتّى وُجـد لها آثارٌ في الصين شـرقًا، وفي فرنسة وإسبانية غربًا.

ولم تكن الغنوصيّـة حركةً واحدة، أو نظامًـا فكريًا واحدًا. وأنما ظلّتْ تتـغّيـر، وتتطوّر، وتبـرز في نظمٍ فكريّةٍ عـديدة ذات مميّزات خـاصّة. ولم يبق من فرقـها، اليوم، سـوى المندائيّة التي كانت، منذ البداية، حركةً منعزلةً، قـائمةً بذاتها؛ وتحتفظ بنظامها الفكري الخـاصّ، وبطقوسـهـا الدِّينيّة التي مـيـزتْها عن الفـرق الأخرى.

اصطدمت الدعوات الغنوصيّة بالمسـيحيّة منذ القرن الأوّل للميلاد، وقد كرّس دعاة المسيـحيّة الأوائل جلّ نشاطهم لمحاربتها. وكان أوّل مَن ردّ عليها مَن عُرِفَ باسم الشـهيد يوستين Justin ، الذي عاش ما بين ١٠٠ و ١٦٥م. وكان قد وضـع ردًا عليها باسم Syntayama . وتولّى الردَّ من بعده أسـقفُ مدينة ليون بفـرنسة إيريناوس (١٣٢–٢٠٢) Irénée . وقد وضـع مؤلَّفًا كبـيرًا لتفنيد الغنوصيّة، في ١٨٠/ ١٨٥م. وكان أوّل مَن دعاهم بالغنوصيّين.

وأسـهم هِجِـسيبـيوس (١٥٠–١٨٠) Hégésipe، وهو من أصل فلسطيني، وكان ينتمي إلى من عُرفوا بالـيهود–المسيحيّين، بالردِّ على الغنوصـيّة. واعـتبر دعـاتهم ورثة الطوائف اليـهوديّة والمعمدانيّـة واليهود–المسيحيّين، الذين عـاشوا في شرق الأردن وفي جنوب بابل.

واستمر كـتّاب آباء الكنيسة يردّون على الغنوصيّـة، أمثال اكليـمنضوس الإسكندري (١٥٠–٢١٥)، وترتليـانوس (١٦٠–٢٢٠)، الذي عُرف بتحـامله الشديد على دعاتها. وكان يعـتبر كلَّ دعوةٍ، خارجَ حدود ما هو مدوّن بالأناجـيل التي أقرّتها الكنيسة، هرطقـةً لا يجـوز التعـامل مـعهـا. وكـان يرفض أيَّة نظرة تمسّ أسبـقيّـة الإيمان، وتعطي للعـقل منزلةً على حسـاب هذا الإيمان الذي قيّده منذ البدء بما ورد في هذه الأناجيل وحدها. وكان يردّد ما الذي يجمع أثينا بأورشليم، أو الأكاديميّة بالكنيسة!

وأسهم أوريجانوس في مصر أيضًا (١٨٥-٢٥٣) في الردّ على الغنوصيّة، وخلّف مقاطع لواحدٍ من دعاتها، هيراقليون.

وعدّد أوسابيوس (ت ٣٣٩) في «التاريخ الكنسي» بعض الطوائف الغنوصيّة ومؤسّسيها. وذكر من زعمائها سيمون، ودوسيتيوس، وميناندر، وفالنتينوس، وبازيليدس، وساتورنيل، وغيرهم. بعضُ هذه الطوائف كانت تسكن حول البحر الميت، كالإسينيّين، والجليليّين، والإبيونيّين، والسامريّين، والنازاريّين، والأوسيّين، والسامبائيّين، وأتباع الحسح، والهيميروباتيست، والمصبوئيّين. كذلك ذكر أوسابيوس عديدًا من الكتب التي وضعتْ في الردّ على دعاة الغنوصيّة لم تصلنا جميعها[1].

وهكذا استمرّت الدعوة ضد الغنوصيّة حتّى القرن الثامن الميلادي، حيث نجد كتاب (أسخيليون) الذي وضعه المؤلف السرياني تيودور بَرخوناي (أواخر القرن الثامن)، الذي ردّد فيه أقوال مَن سبقه مِن كتّاب الكنيسة؛ لكنّه أضاف إليه وصفاً للفرَق الغنوصيّة التي كانت قائمةً في زمانه.

وبهذا استطاعت المسيحيّة -بعد سجال دام بضعة قرون- أن تقهر الغنوصيّة التي ظهرتْ أوّلاً بين صفوف السامريّين منذ

---

(١) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٤٣.

القرن الأول، ثمّ في أنطاكيّة وآسيا الصغرى، ثمّ انتقلتْ إلى مصر فى الإسكندريّة، ثمّ كان مرقيون الذي ترك روما واتّجه إلى سوريّة وشمال الفرات ليبشر بأفكاره الغنوصيّة[٢].

عود إلى بدء

لكنّنا إذا عدنا إلى المساجلات التي دارت بين هؤلاء الغنوصيّين وبين الآباء المسيحيّين والفلاسفة والكتّاب الوثنيين، نجد أنّ الغنوصيّة ظهرت أوّلاً في أوساط السامريّين منذ القرن الأوّل، وفي مناطق أخرى، باشرتْ الغنوصيّة فيها بدعوتها، قبل أن تُكتب الأناجيل الأربعة. والسامريّون كانوا في غالبيتهم من الذين هجَّرَهم ملوكُ أشور، وكذلك بختنصّر من بعد ليُحلَّ محلَّ المجموعات اليهوديّة التي رُحِّلت إلى الجبال الميديّة وإلى بابل.

كان السامريون يتكلّمون لغةً تختلف عن اللغة العبريّة، ورغم أنّهم اعتنقوا اليهوديّة، إلاّ أنّهم ظلّوا يحتفظون ببقايا من معتقداتهم السابقة. ولا يُقرّون كلَّ ما ورد في العهد القديم، وإنما يكتفون بالأسفار الخمسة الأولى فقط. وعلى العموم فإنّهم، إذا ما اعتُبروا يهودًا، فإنّهم، من الجانب الآخر، طوّروا معتقداتهم الدينيّة بشكلٍ مستقل وخاصٍّ بهم[٣].

---

(٢) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٣) عزي سباهي، المصدر نفسه، ص ١٥١.

لقد كانت البيئة السامريّة هذه تربةً مناسبةً لبروز الغنوصيّة، إذ التقتْ فيها تأثيرات عديدة وسط هذه البيئة السامريّة برزت كما يقول أبيفانيوس أربع مجموعات، كان لبعضها دور ملحوظ في تطوّر الاتّجاهات الطائفيّة الخاصّة في الوقت الذي سبق المسيحيّة أو وقت ظهورها.

هذه الفرق هي: الأسينيّون، والصبوائيّون، والكورثمانيّون، والدوسيتيّون. ويجمع الباحثون على أنّ الفرقة الأخيرة لعبتْ دورًا كبيرًا بين السامريّين، سواء كانوا من اليهود أو من عامة السامريّين(٤).

لا بدّ من وقفة عند الدوسيثيّين لأمرَين: أوّلهما أنّ هناك ما يشبه الإجماع أنّ دوسيثيوس هو واحد من أتباع يوحنا المعمدان الثلاثين، كما هو الحال مع سيمون، وطبقًا لما ترويه المواعظ ٢ و٣ و٢٣ و٢٤، المنسوبة إلى إكليمنضوس الإسكندري(٥). وثانيهما: أنّ تيودور برخوناي، الذي كتب عن الصابئة في نهاية القرن الثامن قال إنّ هؤلاء الصابئة يرجعون إلى دوسيثيوس.

---

(٤) G. Van Gronongen, First Century Gnosticism, Its origin and Motifs; Leiden Brill,1967, p 139.

(٥) Neil S. Fujita, Ibid, p. 190. Cf also Jean Doresse, The secret Books of Egyption Gnostics, New Yourk, Viking Press 1970, p. 189.

فمَن هو دوسيثيوس هذا؟

ليس من الهيّن القطع بشأن هذه الشخصيّة، إذ هناك أكثر من واحدٍ قد دُعي بهذا الإسم. ففي الكتاب الذي يحمل عنوان (Adversus Omnes Haeresesi) الذي يُنسب إلى ترتليانوس، جاء أنَّ دوسيتيوس هو أوّل مَن أنكر الأنبياء[٦]. وقد دفع هذا إلى ظهور الصدوقيِّين. وجيروم يعطي الشيء ذاته، وهيبوليتس يبدأ تعداده للاثنين والثلاثين من «الهراطقة» بالإشارة إلى دوسيثيوس.

أمّا المؤرّخ السامري، أبو الفتح، فإنّه يُرجع ظهور طائفة دوسيثيوس إلى الأيّام التي سبقت الإسكندر الكبير، والمصادر التي ترجع إلى الأحبار اليهود فإنها تحتوي إشارات غامضة إلى دوسيثيوس وصبوئيوس كمؤسِّسَين لفرقتَي الدوسيثيِّين والصبوئيِّين على التوالي.

وقد أشار المؤرّخ اليهودي يوسيفوس إلى الطائفتَين في مؤلَّفه (العهود القديمة)، وقال إنّ مذهبَيها يقومان على تقديس جبل كريزيم، ورفض كتب الأنبياء في التوراة، وإنكار البعث؛ وهي كلُّها مما يؤمن به السامريّون.

---

(٦) يقصد أنبياء بني إسرائيل.

وبعض المصادر تذهب إلى أنّ دوسيثيوس عاش بعد سيمون. فيما ترى أخرى أنّه كان معلّمًا لسيمون.

ويقول أوريجانوس: إنّ تلامذة دوسيثيوس يحتفظون بكتبٍ له، وإنّه كان يدعو نفسه بالمسيح، وإنّ فرقته لم تزدهر يومًا ما، وإنّها تكاد تختفي تمامًا في زمانه، إذ لم يبقَ منها سوى ثلاثين شخصًا[٧].

أمّا المصارد الكهنيّة في الإسكندريّة فتُشير إلى وجودهم هناك، وبعدد كبير، وإنّهم كانوا يدخلون في جدالات مع رجال الدِّين المسيحيين[٨].

من كلّ هذا السرد الطويل يظهر أنّه كان هناك أكثر من شخص وفرقة بهذا الإسم. وينشأ عن هذا أنّه من الصعب تحديد مَن تعنيه رواية تيودور برخوناي التي سبق ذكرها[٩].

غير أنّ القول بوجود فرقة بهذا الإسم يبدو مؤكّدًا، كما يبدو مؤكّداً أيضًا القول بوجود كتب تُنسب إلى دوسيثيوس، كما يروي أوريجانوس، إستنادًا إلى مكتشفات مكتبة نجع حمادي.

---

(٧) عزيز سباهي، المصدر نفسه ص ١٥٣.

The Jewish Encyclopedia, Dositheus.(٨)

(٩) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٥٣.

فمن المخطوطات التي عثر عليها هنا مخطوطة، أعطيت رقم ٣٠، وتُعرف باسم رؤيا دوسيثيوس، أو ألألواح الثلاثة لشيت. والمخطوطة بعشر صفحات، ودون مقدمة، تُعرِّف بمصدرها، وبما يشير إلى هذه الألواح، وعلاقة الرؤيا بها. وهي تتألّف من ثلاث تراتيل. جاء في واحدة منها:

«لنبتهج. لنبتهج. لنبتهج.

نحن رأينا. نحن رأينا. نحن رأينا.

ما هو كان في البداية، ما كان حقًا،

ما كان الخالد الأوّل، الذي لم يولد.

الذين منك تولد الخالدون والإيونيّون الكاملون (المتقنون).

وينتهي الكتاب بقوله: «هذا الكتاب من لَدُن الأبوّة (أي من شيت العظيم). ألإبن هو الذي كتبه. باركْني أيّها الأب. وأنا أباركك أيّها الأب»(١٠).

من المؤسف أنّ المخطوطة لم تترجم بعد عن القبطيّة. ولكن جان دوريس، الذي يعود إليه الفضل في تقديم ملخّصات ومعلومات عمّا تضمّنته مخطوطات نجع حمادي، يلاحظ أنّ

---

(١٠) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٥٣.

المخطوطة المشار إليهـا تذكّر بأسلوبها بالمحاورات التي تضـمّنتها الكتب الهـرمسيّـة. بيد أنّ هذا الجـزء من المخطوطة على قـصره، يذكّر أيضًا بالأسلوب الذي صـاغ به المندائيّون تراتيلهم.

تُرى هل للمندائيّين عـلاقة حقًّـا بالمخطوطات، لا سيّـما إذا أخذنا بالحسبان تأكيدهم المستمر على علاقتهم بمصر وبهرمس وشيت، إضـافة إلى العلاقـة التي أشير إلـيها هنا، وهي العـلاقة بدوسيثيوس الغنوصي؟

ثمّ ما الذي يوحي به إستخدام الكتاب المانوي إسم «شيتل» بدلاً من شـيت في إشـارته إلى التـرتيلة التي تمـاثل ترتيلة رؤيا دوسيثيوس، وهي تسمية لشيت يتفرّد بها المندائيّون لوحدهم؟

نحن نميل إلى الاعـتـقاد بوجـود عـلاقة مـا تربط مـا بين الغنوصـيّين المصريّين الذين عـرفوا بالشـيتـيين، وهم أصـحاب المكتبـة، التي اكتُشـفت في نجع حمادي والمندائيّين. وعندمـا نلجأ إلى مـقارنة أفكار الطرفَين سـتـتأكّـد لنا هذه العلاقـة. أمّا مـتى، وكـيف بدأت هذه العـلاقـة، فنحن لا نـقطع بشيء، ولا نملك مـا يسـاعد في حلّ الإشكال سـوى مـا أشيـر إليه من قـبل، وهو أنّ الغنوصيّة انتقلت في عهد الأمبراطور هادريان (١١٠-١٣٨) من فلسطين إلى مـصـر ووجـود تلامـيـذ يحـيى (يوحنا) في كـلا الموقعَين.

ما هي ملامح غنوصيّة المندائيّة؟

إنّ المندائيّين يميّزون بين الخلق في العالم السماوي، عالم الأنوار، وعمليّة الخلق في العالم الأسفل، العالم المادّي. ففي الأولى تتمّ سلسلة من عمليات خلقٍ ينتج عنها تكوين مَن يسكن عالم السماوات الرّوحاني، من ملائكة مطهَّرين، مهمّتهم تنفيذ ما يأمر به الإله الأعلى، ويرمز إليه عادة بـ (الحيّ). وفي الثانية تجري عملياتُ خلقٍ ينتج عنها عالم مادّي، يضمّ الأرض والكواكب والنجوم؛ أي يضمّ الكون، كما نصطلح على تسميته اليوم[11]، ومن يوجد فيه من كائنات حيّة وغير حيّة.

عالم النور، أي العالم العلوي، يتألّف من ثلاثة عوالم: ألعليا والوسطى والسفلي «آلما دْنُهـرَا إيلايَا وميصَايَا وتيـثَايَا»[12]. في أقصاها يوجد الإله الأعلى، الإله الأعظم، ملك الأنوار العلي «هيي... ملكه دْنهورا، ملكه راما دنهورا آلـها ربًّا رامَـا»، بيت لا يراه أحد، ولا يعرف عنه أحد سوى مَن يختاره هو.

وفي الأدب المندائي يفهم أن لا أحد يعرفه سوى «مندا دهيي» أي عارف الحي. إنّ هذا العالم ميتافيزيقي برمّته، لا يُحدَّد

---

(١١) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(١٢) تعريب الجملة : «عالم النور الاعلى والاوسط والسفلي».

له موقع أو زمان، تقطنه، كما قلنا، الكائنات الروحانيّة؛ لكنّه يُصوّر للعامّة كالعالم المادّي، حيث الأنهار والمساكن والأشجار والهواء العليل والبهاء الذي لا حدّ له. ومخلوقاته تعيش حياة إجتماعيّة في صورة أزواج، وتسوده النزاهة والورع... «شونيا كشطا»، عالم المثل. أمّا العالم السفلي فهو الآخر يتألّف من عوالم عدّة، يلفّ أحدها الآخر، طبقات شفّافة، يمكن النفاذ من الواحدة إلى الأخرى[١٣]...

أمّا الغنوصيّة المندائيّة، فقد نظرت إلى خلق الإنسان طبقًا للميتولوجيا المندائيّة. فإنّ «بثاهيل» هو الذي يخلق الأرض، والعالم المادي المحيط بها، والكائن الذي غدا الإنسان[١٤]. يصنع بثاهيلُ الإنسانَ بالتعاون مع «السبعة «الأشرار»، أبناء ملكة الظلام. لكن هذا الكائن لا نفس فيه، ولا نخاع في عظامه، ولا يستطيع أن ينهض على قدميه. وفي هذا التصوّر تلتقي المندائيّة مع فرق غنوصيّة أخرى، لا سيما أتباع ساتورينوس ومن يُعرفون بأتباع الأفعى[١٥].

---

(١٣) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٥٥–١٥٦.

(١٤) عزيز سباهي، المصدر نفسه ، ص ٥٥–٨٠.

(١٥) عزيز سباهي، المصدر نفسه ص ١٥٦، عن الرسالة الثالثة من كتاب المندائيّة «كنزًا رابّا».

وتستمرّ عمليّة الخلق حينما يلتجئ بثاهيل إلى والده، ويخبره أنّ كلّ ما صنعه كان ناجحاً، سوى نظيره، أي الإنسان، فيسارع «أباثر» إلى مكان خفيٍّ ينشد العقل الأكبر «مانًا ربًّا»، ليمنحه النفوس المطلوبة، فيعطيه «الحي» هذه النفوس، ويوصي ثلاثة من الملائكة «إثري» أنْ يخفوا سرَّها عن كلّ العالم، وأن لا يسمحوا لبثاهيل أن يعرف كيف داخلتِ النفسُ الجسد. ويهبط «آدم كسيا»، أي آدم النوراني، أي شبيه الإنسان في عالم المُثُل.

وفي رواية أخرى، إنّ من يتولّى المهمة، هو «مندا دْهيي»، أي عارف الحيّ. وحين يقرّر بثاهيل قذف النفس في الجسد، يسارع مندا دْهيي، أو آدم كسيا، إلى انتشال هذه النفس من جَيب بثاهيل، ويقذفها في الجسد، فينهض آدم الإنسان على قدمَيه، وقد داخلته الحياة، وملأ النخاع عظامه.

وتتحدّث الأسطورة من بعد على شؤون الخلق الأخرى، والتي توضح أن عمليّة التكوين والخلق تباينت في المنشأ والوسيلة بين عالم السماوات أو الأنوار والعالم المادي.

وقد عكست العقائد المندائيّة روح المساومة على المصير الذي انتهى إليه بثاهيل ذاته، فهو، وإنْ لم يحتفظ بمنزلته السابقة في عالم السماء، ولم تغفر له زلّته كليّةً، إلاّ أنّه نال التسامح وأوكلت اليه مراقبة «السبعة» الأشرار.

والمندائيّة ترى أنّ «المنفى» الذي قُذف إليه الإنسان ليس عديمَ النفع بالمرّة. فهو، وإن ظلَّ سجنًا للإنسان، إلاّ أنّه فرصة لامتحانِ صبره على التحمّل، وقدرته على نيل العدّة الضروريّة التي تُعينه على الخلاص في خاتمة المطاف.

إنّ المندائيّة، شأن النظم الغنوصيّة الأخرى، لا تريد من المرء أن يكتفي بلعن المصير الذي إنتهى إليه؛ وإنما ينبغي أن يتحلّى بالصبر، وأن يسلك سلوكًا قويمًا نزيهاً، ويلتزم بالقواعد الدينيّة التي حدّدت له بصراحة لكي ينتهي إلى خاتمة تؤهّله للإرتقاء إلى عالم النور(١٦).

ونختم حديثنا بالقول من أنّ المندائيّة أثّرت وتأثّرت بالأفكار الغنوصيّة. فالمانويّة هي التي استقت كثيرًا من أفكارها عن المندائيّة، وأنّ الناصورائيّين المندائيّين، الذين وُجدوا في فلسطين، هم مِن أتباع الغنوصي المعروف ساتورنيل، أحد ممثّلي الأشكال الأولى للغنوصيّة، وتلميذ (ميناندر) الذي كان بدوره تلميذًا لسيمون الساحر المذكور في سفر أعمال الرسل، الذي ينسب إليه وضع أولى الأفكار الغنوصيّة، طبقًا للمصادر المسيحيّة الأولى.

---

(١٦) عزيز سباهي، المصدر نفسه، ص ١٥٧.

كان ساتورنيل يبشر بأسطورة للخلق تتماثل كثيرًا مع الرواية المندائيّة حتى تسعفه «شرارة» الحياة من إله السماء، وأنّ هذه الشرارة تعود لتصعد إلى السماء لتنضمَّ إلى الكائنات الروحيّة التي تنتسب إليها. لكنَّ المؤرِّخين يذكرون إلى جانب ذلك أنّ تلاميذ ساتورنيل كانوا يتمسّكون بالعزوبة، مستندين إلى أنّه كان يشدّد على الزواج والإنجاب، إنما هو شرّ. وفي هذا يختلف تمامًا مع المندائيّة التي ترفض العزوبة.

أخيرًا، هل تلقّحت المندائيّة بالفكر الغنوصي في فلسطين، أو أنّ بعضًا من أتباع يوحنا المعمدان نقلوه من الإسكندريّة؟ وهل كان سكّان ميسان (جنوب العراق) الذين كانوا على علاقات تجاريّة وغيرها مع الإسكندريّة قد تأثّروا بها؟ أو أنّها، أي الغنوصيّة، قد وجدت بذرتها الأولى في جنوب بابل، وانتقلت من بعد إلى فلسطين ومصر؟ كلّ هذه التساؤلات لن تجد حلاً حاسماً لها بعد.

ولكن، إذا صحّ أنّ هجرة للناصورائيّين قد تمّت في أوائل القرن الأول الميلادي، كما يذهب ماكوخ، أو إلى ما قبل المسيحيّة، كما تذهب الليدي دراور، فإنّ هؤلاء المهاجرين قد حملوا معهم المعتقدات الغنوصيّة، وأضفوا عليها الطابع البابلي في ميسان، رغم أنَّ هذه المعتقدات لم تكن غريبة على جنوب بابل!

الفصل التاسع

عقائد الصابئة المندائيين

من خلال تصفحنا لكتب الصابئة الدينيّة والروحيّة خرجنا بملخّص عامّ عن أهمّ المعتقدات الخاصّة بهم وأهمّها :

أولاً - الخالق والوجود

أوّل كـائن وُجـد من نفـسـه هو «مَلْـكَا دَنْهُـورَا»، أي ملك النور(١). وليس من مـوجود أعظم منـه، ولا من كائنٍ سـبقـه في

---

(١) ومن أسـمـائه أيضـًا: «الحـيـاة» (هيّي) وهو عندهم (نـقـول «وهو» بالتذكيـر لأن المدلول عليه مذكر لا مـؤنث فنتبع في ذلك المعنى لا اللفظة حاذين حذو الصابئة في هذا الصـدد) في ثلاثة أقانيم وُجدوا معًا. وهذا ترتبهم: «هيّي قدمايي وهيّي ثنيـايي وهِيّي تلثايي». ومعنى ذلك: ألحياة الأولى، والحيـاة الثانيّـة والحيـاة الثالثـة. لكلٍّ من هذه الأقانيم أسـماء

الوجود. وهو من الروحانيّين الذكور. وحالما وُجد وُجد معه أيضًا «سيمات هيّي»، أي خزانة الحياة. وهي من الروحانيّين الإناث، ومن أعظمهنّ شرفًا وقدرًا.

و«لمَلْكا دَنْهُورَا» أسماء وألقاب شتّى، منها «هيّي قدمايي»، أي الحياة الأولى. وهو الذي خلق عدّة مساكن للروحانيّين، فجعل ٤٤٤ منها عن يمينه و ٣٦٦ عن يساره. ولم يعيِّن لكلٍّ مسكن من هذه المساكن ألفًا وثمانمائة ألف ألفٍ من الروحانيّين فقط، بل أقام عليهم حارِسَين عظيمَين يرأسانهم: «وهيي قدَمايي» وهو الذي عَمَّد في نهر الحياة (أرَدْنا حيًّا هيًّا)، رسول الحياة «هيفل زِيوَا»، وأخوَيه «شيتل وأَنّوش». ومعنى هذا التعميد أنّه كشف لهم إسم الحياة الأولى «هييّ قدمايي».

و «ملكًا دَنْهُورا» ملك الأنوار، يسكن عالماً نورانيًا يُسمّونه «آلما دَنْهُورَا». ولمّا أراد الخلق صاتَ صوتًا فوجد للحال «مَلْكَا مَارا دْربُوثا أَلَيثا»، أي صاحب العظمة العليّة. ثمّ صاح صيحة ثانية فوجد «مَندا دْهيّي»، أي معرفة الحياة، أو رسول الحياة. وهذا نوَّه

وألقاب ونعوت مختلفة. وإذا رأيت إسم الحياة في كتبهم وأسفارهم الدينيّة فاعلم أنّ المراد بها هذه الأقانيم الثلاثة معًا، ولهذا لا تستغرب حينما ترى النعوت التي ترجع إلى هذه اللفظة المفردة المؤنثة مجموعة جمعًا مذكرًا (انظر مجلة المشرق، الاب أنستاس الكرملي، ص ٦٨٨).

«بهيـفل زيوا وشيتل وأُنّوش ويوشـامِنْ دخيا وشُـبًّا رَبًّا وأواثر راما»، وغيرهم...

والخـلاصـة أنّ الولادة في الروحـانيّين هـي على طريقـة النداء والدعـاء. وكلّ روحـاني يريـد خلق روحـانيٍّ آخـر يناديه فيُخلَق، وحينئذ يعتبر إبن لمن ناداه[٢].

ثانيًا – أقسام الروحانيّين

ألرّوحانيّون عـديدون، لا يكاد يحصى عددهم، ويُقـسمون إلى مراتب مـختلفة، يطلق عليهم إسم واحد وهو «آلمي دَنْهُورا»، أو «إبني دَنْهورا»، أو خلْق النور، أو أبناء النور. وقـد جاء في «الكنزا ربّا» (كتابهم المقدس)، ويعـني الكنز العظيم، ما معناه: خلق النور في منتهى الـكمال الذي يمكن لمثل هذا الخلق أن يكون فـيه، وهو منتـشـر فـي الرقـيع والمسـاكن والأنـهـار والأشـجـار، ومنه: «المتـسـامون»، وهم جنس مـن الروحانيّين يُـسمّـون بلسـانهم «أثْرى»، والملوك «مَلْكي». وفي جميعـهم الضياء والنور والجمال والبهاء[٣].

---

(٢) المشرق، الكرملي، ص ٦٨٩.

(٣) المشرق، الكرملي، ص ٦٨٩.

ومن طبقات الروحانيّين: الطيور« بيري»، والأنواع «ماني»، وذوو الجلالة «إشخيتاني»، والأبواب «تيري»، والعظماء «روباني»، والملائكة «مَلأخي»، والمساكن «مشكني»، والأنهار «يَردني»، والجداول «أرهاطي»، وغيرها...

ومن هذا كلّه نرى أنّهم ليسوا متساوين، بل البعض أعظم قدرًا من البعض الآخر، وأرفع جاهًا ودرجةً، بحسب قِدَمهم ومرتبتهم التي يرجعون إليها. وعليه فأقسام الروحانيّين عندهم تُشبه أقسام الملائكة عند النصارى من قوّات وعظمات وكراسي وكروبين وسروفين وملائكة ورؤساء ملائكة، إلخ... ولكلٍّ روحاني مِن هذه المراتب وظيفة خصوصيّة يقوم بها صاحبها. وهم كلّهم بمنزلة الوزراء والخدَمة لِمَلْكا دَنْهُورا، يعظِّمونه ويسبِّحونه ويمجِّدونه. ومن ذلك ترى أنّه بمنزلة الإله الأعظم عند النصارى[٤].

ثالثًا – مانا والنفس

من معتقدات الصابئة أنّ «مَانا» هو نفس العالم، وأنّ هذه النفس، بكونها بشريّة، لا تُرى؛ وبكونها نفس العالم، تُرى، على

(٤) المشرق، الكرملي، ص ٦٨٩.

حدٍّ ما تُرى الشمس في البحر. وهذه النفس لم تكن متوانية ولا عاجزة، ولذا غدت أمًّا لألوهيّتها على طبْقِ ما تلد النارُ نورَها. وهذه الألوهة، واسمها عندهم: «بيري» (أي الطائر الأعظم، أو الفقنَّس)، لا متبدّلة ولا فانية. ثمّ كأنّها وضعت بيضة في مأواها النيّر، فجاءت عنها موجوداتٌ شبيهة بها، أزليّة مثلها، واسمها كاسمها، أي «بيري».

وأوّل موجود، وُجد من زلال هذه البيضة (لا من المحّ)، كان «مانَا مَلْكَا دَنْهُورَا». ثمّ صدر عنها أنواع أخرى من الـ «مَانَا»، الواحد من الواحد، والشيء بعد الشيء. ثمّ وُجدتِ النار الآكلة، والنور، والماء الحي، والحياة نفسها.

ثمّ إنّ هذه الحياة التي وُجدت آخِرِ الكلِّ كانت ثلاثيّةً. وكلُّ حياة تفوق صاحبتَها منزلةً بحسب دنوِّها من مصدرها. فـ «هَيِّي قدمايي»، ألحياة الأولى، وإنْ شئتَ فقلِ الحياة الأوّل، لأنّ مدلولها مذكَّر، هي ثابتة، وغير متزعزعة، وشبيهة بالإلهيّة العظمى.

وابنتها وهي «هَيِّي تنياني»، أي الحياة الثانية، ويقال لها أيضًا «يوشا مَنْ دخيا»، فإنّها لا تخلو من عيبٍ ورذيلة، لأنّها طامحة البصر إلى التسلُّط.

وابنتها وهي «هَيِّي تلثابي»، أي الحياة الثالثة، ويقال لها أيضًا «أواثر»، فإنّها غبيّة وجريئة. ولذا دفعتْها رغبتُها إلى

مشارفة أعماق «ميّا أسيافي»، أي الماء الأزرق؛ ويُراد به أيضًا الماء الأسود[٥]، فرأت فيها صورتها. وهذه الصورة انقلبت صورة ابنِها، مع أنّ ذلك المثال لم يكن إلاّ من الظواهر الخادعة الكاذبة.

وولد بعد ذلك «بتاهيل»، وكان مكّارًا جبّارًا، إذ يروي عنه أنّه خلّص السيّال الذي وُجد فيه من ناره السرِّيّة حتى غدا صلبا. وهو أيضا أبو البشر وخالقهم، لكنّه لم يُعطَ قوّة يتمكّن بها من إيداع الجسد الذي يخلقه نفسًا (نِشِمْتَا) تُحْييه. أمّا الذي نفخها فهو فيه «مَلَكا دنْهورا»، الذي أقام أيضًا النفس سيِّدةً على العالم

وهذا التصرّف أثار الحسد في صدور مديري النجوم، فانقضُّوا اكالصاعقة على الأرض، وآذوا النفس شرّ أذيَّة. ولم تقع هذه الأمور؛ إلاّ بعد أن عُيِّن لها ما يضادُّها مما هو خير منها.

ثمّ إنّ السماء أحتجبتْ بسماحٍ من «أواثر» بحجاب الظلام الخارج من الجحيم بعد أنْ كانتْ رائعةً متلألئةً، حينما خرجتْ من يد «جبرائيل» أقدم الروحانيّين.

وبعد ذلك استشاط «أواثر» غضبًا، وعاقب الجانين عن بكرة أبيهم، فحكم على «بتاهيل» أن يبقى مصفَّدًا بالسلاسل إلى

---

(٥) على حدّ ما يريد العرب بلفظ الأسود التي معناها الأخضر، ومنها «سواد العراق». وما كان خلاف البياض. وهو المعنى المشهور.

نهاية العالم. وحكم على مُدبري النجوم أن تؤذيَهم النارُ عوضاً من أن يُشعُّوا نوراً.

ثم بُعث «هيفل زيوا»، والفضل في ذلك راجع إلى جبرائيل. فكان رسول الحياة. ولمّا لم تكن قوّته أدنى من قوّة سائر الروحانيّين أعاد إلى العالم الأرضي بهاءه ورونقه، وقوّى روحَ الإنسان الأوّل وروح حامَّتهِ ليقاوموا كلَّ المقاومة من يكيد لهم المكايد، ويفتل منهم في الذروة والغارب[٦].

رابعًا – إعتقادهم بالعواقب

إنّ عقيدة الصابئة قائمة على الإيمان بالعواقب الأربع، وهي: ألموت، والنعيم، والعذاب الأليم «الموقّت»، والديونة الخاصّة بعد الموت. لكنّهم لا يؤمنون بالحشر:

١. **ألموت**: يؤمن الصابئة بأنّ السَّين (وهو القمر عندهم)[٧] يهوي من موقعه، ويقف على الرَّجل المحتضر. وينحدر

---

(٦) المشرق: الكرملي، ص ٧٨٠–٧٨١.

(٧) سِّين: إلهة القمر عند الأشوريّين، قد استمرّتْ عبادة هذه الإلهة في حرّان حتى بعد ميلاد السيّد المسيح. ورمزها الهلال. وبواسطتها يقاس الزمن. واتخذ بعده أساسًا للتقويم الإسلامي.

مع السَّين روحـانيٌّ اسمـه «قـمامـير زيـوا»، لكي لا يدع القمـر يتصرّف بالمدنف علـى الموت تصرّفَ الطاغيّة العسـوف بالعاجز الضـعيف. وقـبل الموت بهنيـهة يَذبـح السَّينُ الميتَ ذبحًا إن كـان صابئيًا، ويخنفقه خنقًا إن كان غيرَ صابئ. وكلا الذبح والخنق لا يراه الحاضرون عند المحتضر.

ثمّ إنّ النفس تذهب إلى «مطَرتا»[٨] العالم الخاصّ بها، لأنَّ لكلِّ مِلَّةٍ عالَمًا، ولكلِّ عالَم موطنُ سعادةٍ وشقاء.

أما «مَطَرْتا» الصـابئة فتـسمى «مَطَرْتا بتـاهيل». وبعد أن تؤدّي النفسُ ما عليهـا من العذاب بموجب خطيئتـها، تتخلّص من «مَطَرْتا بتـاهيل»، ثمّ تـذهب إلى مَطَرْتا أخـرى، وهكذا إلى سـبع المَطَرَاتي، إن كان عذابها يستوجب ذلك. ومثل هذه المطراتي يوجد في سبعة العوالم الأخرى.

وبعـد أن تُطهَّر من ذنوبهـا وآثامـها في مَطَرْتا واحـدة، أو عدّة «مَطَراتي»، تصير إلى مَطَرْتا أواثر». وفي ذهابها إليها يخرج عليها عبيد سبع المَطَراتي ويسـألونها أسئلةً، فإنْ أحسنتِ الإجابة

---

(٨) المَطَرْتا، لفظة آرامـيّـة «مَاطَرْتو» ويجـمـعونهـا «مَطَراتي». مـوطن في الآخرة بغـض النظر عن حالتـه من سعـادة أو شقاء، إذ يوجـد مطَرْاتي للأبرار، ومَطرْاتي للأشرار. واللفظة مشتقة من فعل (نْطَرْ).

عنها تركوها وشأنها وإلاّ قبضوا عليها وأخذوها تحت سطوتهم. ولهذا يجتهد أتقياء الصابئة بتلقين أولادهم هذه الأسئلة والأجوبة منذ نعومة أظفارهم، وهذا تعريبها :

«بأسماء الحياة (الثلاثة) العظيمة. حينئذ لما بلغتِ (النفس) إلى سبعة الأسرار، خرج قدّامها عبيد (المَطَراتي) وجاؤوا متجمّعين عليها وسائليها وقائلين لها: يا نفس من أين أتيتِ، وإلى أين تذهبين؟ فقلت لهم: جئت من المكان الذي يقال له (الأرض)، وأنزل نحو الحدود (أو التخوم، أو الارجاء) الطيّبة. فقالوا لي: عبد مَن أنتَ؟ ورسول مَن أنتَ (تُذكَّر). فقلتُ لهم: أنا عبد الأرجاء المحبوبة ورسول آيرَسغيا (هو من الروحانيّين، ومعنى اسمه الأثير الزاخر، وهو الملء الإلهي)، فحينئذ باركوني واحترموني وحفظوني وقالوا لي: كلُّ مَن يعرف هذا السؤال يصعد نحو الحدود (أو الأرجاء) الطيّبة. وإذا أخفى الواحد سرّ المكان (أي الأرض)، لا يصعد نحو الحدود الطيّبة»[٩].

٢ . **النعيم** : ويسمّونه عندهم «آلْمَا دَنْهُورَا»، أي عالَم الأنوار. يَروون عنه نفس ما يقوله النصارى عن السماء، أي إنّه لا حرٌّ فيه ولا برد، ولا لصوص ولا أذى من أي نوع كان. هناك

---

(٩) المشرق الكرملي، ص ٧٨٢.

النور والضياء والبهاء متـوفّر. يجد الإنسان في عالم النور كلّ ما يرغبه من اللذائذ والطيِّبات الخالية من كلّ زللٍ أو إثم أو إصر[١٠].

٣ . **الجحيم** : عذاب الجـحيم عندهم وقـتي. وأطول عذاب عندهم يكون إلـى فناء العـالم. هذا الفناء يكـون على هذا الوجـه: «زيقا ناشَم» أي «تهب ريح» عاصفة، فتمهّد أوتاد الأرض، وتدفن مطمئنّاتهـا وأجوافها. ثمّ يصيـر القمران وسائر المتـحيّرات، التي هي أولاد «الروهاية» إلى «آلمي دَنهورا». وأمّا بقيّة النجوم التي لا حياة لها فتتناثر وتهوي هويًا من مـوطنها فتضمحلّ. ثمّ إنّ سبع طبقات السماء تطوَى طيَّ الدرج، فيبتلعها «الأور».

وبعـد أن يستـر طيَّهـا يأتي إليـه «هيفل زيوا»، ويقـول له بأعلى صـوته: «أهلى مناتا بكَرْسَخ»، أي: «لي سهم فـي جوفك». فيـفتح الأور فـمَه رغـماً عنه، ويجـوّف النفوس الـصابئـيّة (أي يقذفهـا من جوفه). أمّا سائر نفـوس بقيّة الملل فلا تُجـوَّف لتبقى في موطنهـا، وتضمحلّ فيه، عـائدة إلى القِدم. وأمّا سبـع طبقات الأرض القائمـة على ظهر الأور فتسـقط عنه عند سماعـه صوت «هيـفل زيوا» الجمـهـوري، وتغدو بحـرًا عذبًـا كمـا كانت قـبل الخلق[١١].

---

(١٠) المشرق الكرملي، ص ٧٨٢.

(١١) المشرق، الكرملي، ص ٧٨٣.

٤ . **الكواكب والنجوم** : أمّا من جهة اعتقادهم بالكواكب والنجوم فإنّ الصابئة الحرّانيّة كانوا يذهبون إلى أنها أرواح سماويّة لا يتطرّق إليها الفساد والفناء. وكانوا يقرّبون لها القرابين البشريّة، ويبتهلون إليها. وهو أمر ليس فيه شبهة. جاء في كتاب السرّ المكتوم في مخاطبة النجوم. ما نصّه:

«هيكل المشتري هو مثلّث الشكل، وأعلاه محدَّد. وهو مبنيّ بالحجارة الخضر المِسَنِّيَّة. ومدهون الجدران دهانًا أخضر. وستوره حرير أخضر. وفي وسطه مقعد فوق ثماني درج. وعليه صنم من القصدير. وله سدنة لا يزالون في تعبدٍ له. فإذا كان يوم الخميس، ويكون المشتري في شرقه، أتاه الصابئون وهم لابسون الأخضر، وبأيديهم أغصان من السرو، وقد تقلّدوا بقلائد من جوز السرو. ويكون معهم صبي رضيع، يكونون قد اشتروا جارية، ووطئَها سدنةُ الهيكل، وحملتْ، ورضّعتْ صبيًا، فيأتون بها وبه، وبعد ثلاثة أيّام من وضعها، فينخسونه بالإبر، وهو على يدها حتّى يموت. ويقولون ما تعريبه:

«أيُّها الربُّ الخيّر! قرَّبْنا إليكَ من لا يعرف الشرّ. فتقبّلْ قرباننا. وارزقْنا خيرَكَ وخيرَ أرواحك الخيّرة»[١٢].

---

(١٢) المشرق الكرملي، ص ٧٨٣.

وجاء عن هيكل المريخ: «هيكل المريخ مربّع الشكل، وسائره أحمر اللّون. مدهون بالدهان الأحمر. وستوره حُمْر. وبه أسلحة معلّقة. وفي وسطه مقعد قائم على سبع درجات. فوقه صنم من حديد. وبيده سيف. وبيده الأخرى رأس معلّق بشعره. والرأس مُخَضّبٌ بالدماء. ويأتونه يوم الثلاثاء، حينما يكون المريخ في شرقه، وقد لبسوا الأحمر. وتلطّخوا بالدماء. وبأيديهم خناجر وسيوف. ومعهم رجل أشقر أنمش أحمر أبيض الرأس من شدة الشقرة والصُّهبة. فيُدْخلونه في حوضٍ مملوء زيتًا وأدوية تعفّن اللحم والجلد بسرعة. ويشدّونه بأوتاد في قعر الحوض، مغمورًا بالماء المذكور سنةً. فإذا انقضى الحول، جاءوا إلى رأس ذلك المغمور، فانتزعوه من البدن بعروقه، وأتَوا به الصنم وقالوا:

«أيُّها الربُّ الشرِّير الذي تُحبُّ القتلَ والخرابَ والحرقَ وسفْكَ الدماء! قَرَّبْنا إليكَ ما يُشبهك، فتقَّبلْ منّا واكفِنا شرَّكَ وشرَّ أرواحك»[١٣].

وهم يزعمون أنَّ الرأس يكلِمّهم بما يصيبهم في سنتهم من خيرٍ ومن شرّ[١٤].

---

(١٣) وممّا جاء في عادة الصابئة بخصوص القرابين البشريّة للكواكب ما ذكره البيروتي في «الآثار الباقية» ص ٢٠٥، نقلاً عن ابن إسحق الكندي قال: «إنّهم يعرفون بذبح الناس ولكن ذلك لا يمكنهم اليوم جهرًا».

(١٤) الكرملي، المرجع نفسه، ص ٧٨٤.

وقد ذكر صاحب الكتاب المذكور سنن الصابئة الحرّانيّة لكلٍّ واحد من الكواكب السيَّارة وصف للهياكل الخاصّة بها على الوجه الذي أشرنا إليه، كالمشتري وزحل والزهرة وغيرها.

أمّا اعتقاد صابئة هذا اليوم في نواحي العراق بالنجوم والكواكب فهذا ملخّصه:

إنّ السيّارات خلْقٌ على حِدة. لها نفس وجسد. وكلّها ذكور إلاّ «لِيْوَت» يعني الزهرة، فإنّها أنثى. وكلّ واحد من هذا الخلق يسير على سفينةٍ شِراعيّة في الفضاء. يخفق على دقلها الأعلى علمٌ كبيرٌ يسمّونه «دْرَفشا»[١٥]. وهذا «الدرفشا» نيّر بذاته. وما غروب السيارات إلاّ عبارة عن طيّ هذا اللواء. وما شروقها إلاّ عبارة عن نشره.

وأمّا سائر النجوم، فهي عبارة عن لآلئ ودرر مختلفة الحجم والقدر، منبثّة في الفضاء، راجعة إلى أصحاب السيارات، أو إلى غيرهم. وأمّا النجم القطبي فهو درّة منزّلة على باب «أواثر»[١٦].

---

(١٥) وهي كلمة من أصل فارسي نقلها العرب إلى لغتهم بصورة «دِرَفْس».

(١٦) الكرملي، المرجع نفسه، ص ٧٨٤.

خامسًا – يوحنا المعمدان والسيِّد المسيح

أمّا من جـهة اعتـقاد الصابئـة بالمسيح وبيوحنا المعـمدان، فإليك تعريب ما جاء في كتاب «الكنزا» كتابهم المقدس فيذكر:

«... فـأعـيد عـليكم الكلام يا تلامـذتي[١٧]. إنّ مْـشِيـهَـا» (المسيح)، ويقـال له عطارد[١٨]، سـوف يختـفي عـدّة أشهـر في أحشاء «أمٍّ بتول». ثم يبرز منها بجسده. فيربو في حجر والدته، ويرضع من لبنهـا، وينشأ بين ظهراني اليـهود، ويَعرض مـذهبَه كلَّه منذ أوّل نشأته. ثمّ يُعـدّ لنفسه عَبَدة له، ويُكـره أصحابه على استشعار المِرعزاء[١٩]، وجزٍّ شعور الرؤوس، فـيرين الهوى على قلوبهم من حيث لا يدرون.

---

(١٧) هذا كلام هيفل زيوا وهو الروحاني الذي نزل إلى العالم، وأوحى كتاب الكنزا إلى أبينا آدم، على ما يعـتقده الصابئـة. وقد أخرج كلامـه مخرج النبوّة، لأنّهم يعـتقدون كلَّ الاعـتقاد بقـدم كتابهم هذا، وبـأنّه يتنبأ عن جمـيع الأديان التي تحدث على وجـه الأرض، وعن جميع الـوقائع التي تقع فيه في مستقبل الزمان إلى نهاية العالم.

(١٨) وبالصابئيّة أنبو. قُلتُ: يعتـقد المندائيّون أنّ كلَّ واحد من السيّارات هو صاحب ديانة على الأرض، وقد جاءوا إليهـا هابطين شيئًا بعد شيء، ثمّ رجعوا إليهـا بعد تمكين ديانتهم في المعمور. ولهم في سـيًّاراتهم عوالم وسماء ومحلّ عذاب... وعندهم أنّ المسيح هو عطارد كما ترى.

(١٩) اي على اتخاذ شعر المعز شعارًا يلبسونه.

ثمّ إنّ أصحابه يقومون بعيده يوم الشمس، وسوف يقول لها: «إنّي إله حقّ، وقد أرسلني أبي إلى هنا. إنّي أنا أوّل الرسل وخاتمهم. إنّي الآب. وإنّي الروح القدس. وقد نبغت في الناصرة». وله عرش. وسوف يرفع الناسوت بالناسوت. وسوف ينتقل إلى أورشليم.

«هذا وإنّ اليهود سوف يتألّبون إليه بما يرون منه. وسوف يريهم معجزات وآيات غريبة، حتّى إنّه ينشر الموتى من القبور، ويعيد الكلام إليهم. وسوف يدعو اليهود ويقول لهم: تعالَوا وعايِنوا فإنّي أحيي الموتى، وأنشرهم، وأدفع الفدية، وإنّي أنا «أنّوش الناصري».

هذا وإنّ الروح نفسه سوف يسمع صوته في أورشليم ليشهد له. أمّا «مشيها» فإنّه يفتن أبناء الناس، يعمّدهم بماء قابل النشف، ويُغيّر عماد الحياة، إذ يعمّد المتشيّعين له: «باسم الآب والإبن والروح القدس»، ويزحزح الناس عن عماد الحياة الذي تعمّد به آدم في مياه الأردنّ الحيّة.

وفي ذلك العهد يولد إبنٌ إسمه «يهيى» بن أبو ساوا زكريا»، ويأتيه في شيخوخته. ويكون عمر أمّه «إينَشْوَي» مائة سنة. وتلده في هرمها. وأمّا «يهيى» فسوف ينشأ في أورشليم، لأنّ الإيمان يكون في صدره. وسوف يطوف الأردنّ، ويعمّد

الناس مـدة ٤٢ سنة قبل أن يأتي العـالم عطارد المتـجسّد. وبـعد ولادة «يهيى»، بينما يطوف الأردن، ويعمّد، سـوف يأتي مشيها، ويتقدّم بتواضع ليصطبغ بعماد «يهيى» وينتفع بحكمته.

لكن «مشـيها» سوف يعـبث بمذهب «يهيى»، ويغيّر عـماد الأردنّ. غيـر أنّه في اليـوم الذي يتمّ «يهيى» مـهمّـته، آتي إليـه، وأظهر له، حينمـا يكون ابن ثلاث سنوات ويوم واحد، لأكلّمه عن العماد، وأشرح له النعمة الإلهيّة. وفي آخر الأمر، أستلُّ روحه من جسـده، وأرفعه بالطهـارة والنقاء إلى «آلما دَنهُورا»، وأعـمّده في الماء الحيّ المنعش ماءِ الأردنّ الزلال، وألبسـه لباس المجد، وأضع على مـفـرقه التـاج النيّـر. واسـمـه أنشودة القـلب الطاهر، تلك الأنشودة التي تشبه الأغنية التي يغنّيـها ملوك النور، ويسبّحون بها «ملكًا دنهورا» إلى دهر الداهرين.

«إلاّ أنّ العالم ينحاز إلى الكذب بعـد «يهيى». ويدفع المسيح جمـيع الشعـوب إلى اتّباع تعـاليمـه. ومثله يفـعل إثنا عـشر من الرجـال الذين سوف يطوفـون العالم مـدّة ثلاثين سنة. وفي تلك الحقـبة يظهر الدجّال في الدنيـا. يقيم الدعوى عليـه. ويسلّمه إلى أيدي اليهود. ويتركه أصحابُه يموت مـسمَّرًا على صليب. فحينئذ ينتشر أصحـاب المسيح على وجه البسيطة»[٢٠].

---

(٢٠) الكرملي، المرجع نفسه، ص ٩٢٤-٩٢٦.

ألفصل العاشر

شعائر الصابئة الدينيّة

للصابئة المندائيّـين شعائر دينيّة خاصّـة بهم، أسوة بباقي المذاهب والطوائف. وهي كالآتي :

أولاً - ألعماد

ألعماد أو المعموديّة[١]، وبلسانهم «مْصَوْتَا» وهو التغطيس بالماء. وهو عندهم على ثلاثة أقسام :

---

(١) ليس للمندائيّة محلّ صلاة عمومي يجتمعون فيه كما هو المألوف عند سائر أصحاب الأديان؛ بل الـذي ينوب عنه هو النهر. فلا تتمّ سُنّة من سننهم إلاّ في «الماء العذب الجاري». ويفتتحونها بصلوات يتلونها قبل ولوجهم الماء. ويختتمونها بصلوات أخرى يزمزمون بها عند خروجهم .

١ . **عماد الولادة** : عندما يولد الطفل يذهب واحدٌ من أقاربه إلى الكاهن ويذكر له يوم ولادة الطفل والساعة التي جاء فيها. وحينئذ يراجع الكاهن كتابًا خصوصيًا، إسمه «أسْفَر مَلواشا»، ومعناه (كتاب ساعة الحبل)، فيبحث الكاهن في الكتاب عن الإسم اللائق بالمولود، وبعد أن يتمّ الحساب، يقول لطالب إسم الوليد: «إسمه كذا». وأغلب الأحيان يكتبه على ورقة، ويسلّمها بيد الطالب المذكور، ليأتي بها يوم تعميد الوليد.

والعادة الجاريّة عند الصابئة إنّهم يسمّون الولد باسمٍ ثانٍ، بلسان البلد الذي يوجدون فيه، فيكون عربيًا في بلاد العرب، وفارسيًا في بلاد الفرس. وهلمّ جرًّا[٢]. وحينئذ لا يذكر الاسم الديني إلاّ في الشعائر الدينيّة وما كان من بابها.

ثمّ بعد أن يمضي على المولود أربعون يومًا، يفكِّر أهله في تعميده. ولا يجوز أبدًا العماد قبل هذه المدّة. لكن يجوز إطالتها إلى مدّة تفوت الشهرَين. وفي اليوم المعيّن يحمل واحد من الأقارب أو الأصدقاء، إن ذكرًا أو أنثى، الوليد الذي يُراد تعميده ومع الجماعة والدة الولد[٣].

---

(٢) يوجد صابئون مَن لا يسمُّون أولادَهم إلاّ باسم واحد، هو الاسم الديني لا غير، فيُعرفون به دينًا ودنيا.

(٣) لا يكون يوم عماد الولد إلاّ نهار الأحد، ولا يجوز تعميده في أيّام

ويذهب الجمع إلى الكاهن، واسمُه عندهم «ترميدا» (أي التلميذ)، فيلبس حلّته الكهنوتيّة أو الدينيّة، واسمُها «رَسْتَه»، ثمّ يمسك عصا خصوصيّة يسمونها «مَرْكنا».

وينطلق بالمرأة والوليد وحامل الولد والجمع الحاضر إلى ماء عذبٍ جار، ومعه شمّاسان؛ واسم الشمّاس «شْكَنْدا». فإذا صار إلى حافّة الماء، يتلو صلاةً إفتتاحيّة، ثمّ يلبس الشمّاس والوليد رَستتهما؛ وبعد ذلك، يسأل الترميدا عن اسم الولد؛ فيُذكَر له. ثمّ يأخذ الشمّاس الولد، فيتلو الكاهن على رأس الوليد صلواتٍ، يستنزل عليه بركات العماد، ويعتني كلَّ الاعتناء أنْ لا يسقط من رأس الولد، أو من رستته، شيءٌ أبدًا، وإلاّ فإنْ سقط من المتعمّد لفافةٌ، أو نحو ذلك، فيجب على المعمَّد أن يتعمَّد ٣٦٠ مرّة، قبل أن يعمّد الولد؛ و٧٠٠ مرّة، إذا وقع شيء من الكاهن .

الأعياد ولا أيام الأسبوع، بخلاف ما ذكره نقولا السيوفي. ولا يجوز العماد قبل هذه المدّة (أي مدة الأربعين يومًا)، لأنّ الولد والوالدة يُعتبران نجسَين. وكلُّ مَن يلمسهما قبل العماد يتنّجس. ويجب عليه الاعتماد، ولا يجوز لـلوالد نفسه أن يذبح ذبائح قبل المدّة المذكورة أيضًا. ولا يُعمَّد الوليد ما لم تُعمَّد الوالدة قبله. أمّا سبب وجوب التعميد نهارًا فهو لأنّ «شبَّاربًا» من روحانييهم يذهب في ذلك النهار إلى «مشوني كُشْطا»، وهو عالَم ثانٍ، على زعمهم، فيه نور دائم، وسكّانه من الصابئة، ليُعمَّد من يحتاج إلى هذه في ذلك العالم.

وبعد أن ينتهي الكاهن مـن تلاوة الصلاة، يضع في إصبع المتـعـمّد خـاتمًا من عـود الآس. ثمّ ينزل الكاهن في المـاء، ومعـه الإشكندا، حاملاً الطفل، بحيث يبلغ الماءُ ركـبةَ النازلين فيه، بدون أن يجوز لـهم رفعُ شيءٍ من ثيابهم الدينيّـة. ثمّ بعد ذلك، يـغرف المعمِّد ماءً بيديه، ويلقـيه على الطفل ثلاثَ مرّات، إلى أن يتبلّل. ثمّ يقول له بالمندائيّة ما تعريبه:

«فـلان بن فلان. إنّك تعـمّـدتَ بعمـاد بَهْـرَامَ العظيم، إبنِ رُربي. فـعـسى هذا العـمـاد يحـفظك، ويُصـعـدكَ إلى أعلى (آلما دنْهـورا)، بجاه اسم هيّي (الحـياة)، واسـمه مَنداهْيّي (مـعرفـة الحياة، أو رسول الحياة) المذكورَين عليك».

وبعد ذلك يخرج جـميعهم من الماء، ثمّ يسـتلّ الكاهن خاتم الآس[٤] من إصبع الـولد، ويضعه على جـبينه تحت عـمامـته[٥]. وبعـد أن يصلي الكاهن هنيهـة، يسـجد (ومـعناه عندهم: يحني رأسـه وصـدره. وهو يفـعل ذلك كلّ مـرّة يَذكـر اسمَ روحـانيٍّ عظيم). ثمّ يأخذ بيده الـيمنى شيئًا من الكندر، ويلقـيه في نار قد أُوقدتْ في موقدٍ، على هيـئة ما يسمّيه العامّـة بالمنِقَل، ويُتّخَذ من

---

(٤) وإذا لم يوجـد في الـبلد آس، يبـدّل بالمَرْمـاحـوز الذي يـسـمّى أيضًـا بالماحوز أو بالمرو الماحوزي.

(٥) والعمامة تسمى عندهم كنزالا.

الطين الحرّ، ويوقَف لهذه الغـاية في مثل هذه السُّنَّة. وبينما يلقي البخور على النار يقول: «ريها دْبسَّم»، أي لِتَفُحْ رائحةُ البخور.

وبعـد ذلك يضع الكاهن في يده اليسـرى مـقدارَ عـشـر سِمسِمات من سِمْسم مُـحمَّص موضوع في كيس له لهذه الغاية. ثمَّ يريق عليـه شيـئاً من الماء، يأخـذه بقنّينة من مـاء النهرِ، قـبل خروجـه منه. ثمّ يلتُّه بأنامل يده اليمـنى، ويضع منه ثلاث مرّات على جبين الولد، ممرًّا يده من الصدغ الواحـد الى الصدغ الآخر، وهو يقول كلَّ مـرّة ما تعريبه: «لقـد وُسمتَ بسمةِ الحـياة واسمِ معرفة الحياة مذكوران عليك».

ثمّ يصلّي صلاةً طويلة. ثمّ يذكر في قلبـه، بنوعٍ لا يسمعه أحد، أسماء سرّيّة. ويذكر كلَّ إسمٍ على كلِّ عقدٍ من عقود أصابعه الخمس، واضعًا كلَّ مرّة طرف إبهامـه على كلِّ عقدٍ. ويذكر واحداً وستّين إسمًا. وهذه الأسماء لا تذكر لأحد حتّى ولا للصابئة.

ثمّ يقـول لـه: «وعليكَ الآن أن تظهـر الأسـمـاء التي هي مذكـورة في هذه الصفـحة لوقت الحـاجة». فـيجـتهد المـترَشّح لحفظها على قلبه بدون التلفّظ بها.

ثمّ بعـد أن ينتـهي المعـمّـد من هذه الأسـمـاء، يلثم طرف عمامته، ويضعهـا على كلٍّ من عينيه مرّات عديدة. ثمّ يُنزَع الخاتم من جبهةِ المتعمد، ويلقَى في النهر. ثمّ تنزَع ثيابه. وينتهي العماد.

وأجرة العماد لا تتجاوز نصف الدينار، وهي أجرة واجبة الدفع. وإذا أدّى المتعمّد أكثر من ذلك فيكون ذا من الأمور المحمودة. وإذا توفي المتعمّد في أثناء العماد، فإمّا أن يتمّم الكاهن السنّة إلى آخرها على الميت، وإمّا أن يؤتى من المندائيّة، يشبه إسمه إسم الميت. ويُنهي عليه تتمة الحفلة الدينيّة[٦].

٢ . **عماد الجنابة** : أمّا عماد الجَنَابة، فيكون تقريبًا على الوجه المارّ ذكره. ويتحتّم على الصابئ كلّ مرّة يجنب. وهو يجنب في أمور كثيرة منها : لمس ميت، أو مولود، أو نفساء، أو حائض، أو دمّ حيوان مذبوح على غير سنّتهم. ومنها إذا عضّ الصابئَ كلبٌ، أو حيوان آخر فأدماه. وكذلك إذا نهشتْه حيّة، أو لسعتْه عقرب، أو نحوهما من الهوام. ومنها إذا ذهب الواحد منهم إلى بلاد أصحابها معذورون، أو أكل لحم لم يذبحه واحد منهم، أو أودع السجن، أو أتى إمرأته، أو احتلم. إلى غير ذلك من الأمور التي إذا عمل بها المندائيُّ التقيُّ الورِعُ فلا يكاد يخرج من الماء. ولذا ترى كثيرين منهم لا يحفلون بسننهم هذه إلاّ في النادر.

٣ . **عماد الجماعة** : وأمّا عماد الجماعة فلا يكون إلاّ في عيد واحد يسمّونه: «بنجة»، وهي كلمة فارسيّة معناها (عيد) من

---

(٦) ما سردنا أعلاه شاهدناه في حفلة عماد صابئيّة عام ١٩٨٤.

خمسة أيام. فيه يتألّب المندائيّة من كل أوب وصوب، ويدخلون النهر. ثمّ يقرأ عليهم الكاهن صلوات، يكثر في مطاويها ذكر لفظتَين، هما: «هَلَّنْ نَشْمَاثَا»، ومعناهما: «هذه النفوس». وإنّهم يعمَّدون جميعًا بالتغطيس، وليس بالرشّ.

٤ . **عمادات أخرى** : وهناك عمادات أخرى. منها: تعميد الزوجين قبل إجراء مراسيم المهر، وبعد أسبوع العرس، ومَن يتخطّى ذلك يُعتبر خارجًا على القوات. وتعميد المؤمن (عالم الدين) على يد غيره من علماء الدين في كلّ مناسبة. وتعميد الناصورائيّين من الجنسَين، وهو تعميد وجوب الرتبة. وتعميد المتديِّنين بعد قيامهم بمراسم حمل الجنازة والدّفن، وغيرها...

تعليق وتعقيب : **ما هو مغزى التعميد وما فلسفته؟**

للتعميد مغزيان: الأوّل هو تطيهر الجسد، لأنّ الجسد، هو «وعاء النفس» باعتقاد المندائي، والنفس هي «نسمة من الذات الإلهيّة». لذا فالماء هو الوسيلة الأساس، منذ الأزل للخليقة والتطهير. تجد صداها كطقسٍ دينيٍّ عند الصابئة، فهم يحلّلون استعمال الماء الجاري، ويحرّمون استعمال المياه الآسنة. من أجل ذلك نجد سكناهم لصق شواطئ الأنهار، لتسهيل إقامة هذه الشعيرة الدينيّة على وفق الطقوس القديمة.

وثمّة، بطبيعة الحال، مستلزماتٌ لهذا الطقس، يجمع عليها كلٌّ الذين عاصروا تقاليد المندائيّين، أو كتبوا عن معتقداتهم وشعائرهم. ومن أبرز تلك المستلزمات :

ماء الحياة، أو كما يدعوه المندائيون «الماء الحي» (ميًّا يَهيَا) الجاري، وهو أوّل المستلزمات. ثمّ وجود إكليل ريحان، أو آس «كليلا دْآسَا» رمزًا للحياة والطيب.

وأنْ يتمّ طقس التعميد بالملابس الدينيّة الرسميّة «رسته»، وهي مصنوعة بالضرورة، من الكتّان، أو القطن الأبيض، رمزًا للطهارة والنور، يرتديها الكاهن المعمِّد والشخص المعُمَّد بعد تجرّدهما من ملابسهما الدنيويّة، رَمزًا للخلاص من أثقال الدنيا.

و«الرستة»، أو ملابس التعميد، هي رداء أبيض يرمز إلى كساء النور الذي يرتديه الرّوح الطاهر. على جميع أفراد الطائفة عامّة وروحانيّين اقتناء هذا الكساء. سوف نتطرّق إلى تفاصيل قِطَعِ التكوينيّة في مكان آخر من هذا البحث.

أمّا خطوات التعميد فتتمّ بتجريد الشخص من الملابس الدنيوية، وارتداء الملابس الدينيّة مباشرة. ثمّ النزول إلى الماء والغطس فيه، ثمّ الارتسام بالماء مع ذكر اسم اللّه، وشرب شيء من ذلك الماء. فالختم ووضع اليد اليمنى على رأس المتعمِّد. وأخيرًا المصافحة أو أداء اليمين.

والتعميد يؤدّى باتّجاه الشمال التي هي قِبلة الصابئة، وهي المكان المقدّس في عالم الآخرة، حيث توزن الحسنات والسيِّئات لكلِّ فردٍ. ويصدر الحكم النهائي بحقٍّ ذلك الفرد وأعماله. وباعتقاد الصابئة أنّه، عند وقوفهم باتّجاه الشمال، فكأنّهم وقفوا باتّجاه ذلك المكان المقدس. لذلك فإنّ جميع شعائرهم تتمّ وهم متوجّهون نحو الشمال.

ثانيًا - البَهثة

من سُنَنْ الصابئة «البهثة»، ومعناها «كسرة خبز». وهي مشتقة من «فْحَتْ» ومعناها: شقّ، وكسر، وفلق. وقد وصفها نقولا السيوفي وصفًا قرّبها كلَّ التقريب من «سرّ القربان» عند النصارى. أمّا حقيقة الأمر فغير ذلك تمامًا.

يأتي واحد (أكان رجلاً أو إمرأةً، من خَدَمة الدين أو من العامّة) بقليل من طحين البِرِّ ويَهيله من علوٍّ على يدي «الترميدا» المفتوحتَين الموضوعتَين الواحدة لِصْق الآخرى. فيذهب به الكاهن إلى النهر، أو إلى ماء جار عذب، ويغرف منه قليلاً، ويصبُّه على الدقيق، فيعجنه بدون خمير وملح، ثمّ يخبزه بهيئة قرصٍ صغيرة، قطرُها خمسة أو ستة سنتيمرات. وبعد أن يخرجها من النار يضعها في محلٍّ خصوصي، قد أرصد لهذه الغاية. وهو

عبارة عن حفرةٍ قد حُفِرت في الحائط، أو في شجرة، وبالأخصّ في نخلةٍ إلى نحوِ شكلِ عشِّ الخطاطيف، بعد أن يطهّرها بالماء، ويتلو عليها صلوات خصوصيّة. وعند العماد يذهب الكاهن، ويأخذ منها ما يكفي للمتعمّدين.

وتُخبز البهثة يوم العماد. وإذا مسّها واحد من العوام فلا يجوز بعد ذلك للكهنة منهم أن يأكلوا منها، بل تُدَّخر للعوام فقط.

وهذه البهثة تُعطى لكلِّ مَن يتعمَّد، صالحًا كان أو شرّيرًا، رجلاً أو إمرأة. وبعد أكل البهثة، يَشرب المتعمِّد ماءً من قنّينةٍ صغيرة من الزجاج المألوف، وقد مُلئتْ من الماء الجاري الذي يتعمّد فيه الصابئ، ويتعمّد كلُّ مَن يَجنَب كما رأيت فويق هذا. وينقد أجرة العماد، وهي عبارة عن نصف دينار أو ما يزيد عليه. والبهثة لا تُفصل عن العماد. كما أنَّ هذا لا يكون بدون تلك.

ثالثًا – الطهارة

لا تصح العبادات عند الصابئة المندائيّين بدون طهارة (رشامة). والطهارة فرض على كلِّ صابئيٍّ وصابئيّة. فالجنابة مبطِلة للعبادات، والغسل يكون بالماء الجاري غير المنقطع عن مجراه الطبيعي. ويكون ذلك بالإرتماس ثلاث مرّات بعد نيّة الطهارة.

رابعًا – الوضوء

لا تصحّ الصلاة بدون وضوء، ويكون الوضوء على النحو التالي:

يتقدّم الصابئيُّ من النهر ويقول: «وتعني أبارك اليردنه العظمى الماء الحي»، و«باسم الحيّ العظيم. ألسلام والتزكية لكَ يا أب الآباء، الملك برياوين، ملك الماء الجاري العظيم ماء الحياة».

وهنا يجب أن يشدّ حزامه، قبل أن يقترب من الماء. ثمّ يغسل يديه قائلاً: «باسم الحياة العظمى، أطهِّر يديّ بالصلاح، وشفتَيَّ بالإيمان، لينطقا كلامَ النور. وليجعل وضوئي حسنًا بأفكار النور». ويغسل وجهه ثلاث مرّات. ويأخذ بيديه قائلاً: «أبارك اسمك، وأمسح أسمك، يا مولاي مندادهيي، حمداً لسماء الجلال الأعظم الذي قام من ذاته».

ثمّ يأخذ بيده الماء، ويمرِّرها على جبهته، من بداية صدغه الأيمن حتّى نهاية صدغه الأيسر. ويقول: «أنا فلان بن فلانة – ويذكر ملواشته، أي الإسم الديني له– أرسم نفسي برسم الحياة –إسم الحياة واسم مندادهي منطوقان عليّ».

ثمّ يغمس سبابتَيه ثلاث مرّات في الماء. ثمّ ينظّف أذنَيه قائلاً: «لتسمع أذناي صوت الحياة». ثمّ يستنشق الماء ثلاث مرّات

من راحته، مرددًا في كلٍّ مرّة: «لتشم مناخيري رائحة الحياة». ثمّ يبدأ بغسل ركبتَيه وساقَيه قائلاً : «ليست علامتي هي النار[٧]، ولا هي الزيت[٨]، وليست هي المسح[٩]. إنَّ علامتي هي بيردنة[١٠] العظمى، الماء الحيّ الذي لا يستطيع الانسان أن يحصل عليه بقوّته وحده. إنّ اسم الحياة، واسم منداهيي منطوقان عليّ».

ثمّ يتمضمض الصابئ ثلاث مرّات بيده اليمنى قائلاً: «ليمتلئْ فمي بدعوات التسبيح». ويلفظ الماء إلى جهته اليسرى. ثمّ يغسل ركبتيه ثلاث مرات قائلاً: «لتبارك ركبتاي الحياة العظمى ولتسجد له». ويغسل بعد ذلك ساقيه ثلاث مرّات قائلاً: «لتتبع ساقاي سبل الحق والإيمان». ويغمس أصابعه في النهر، ويداه ممدودتان معًا، وراحتاه نحو الأرض قائلاً: «أنا فلان بن فلانه، عمَّدتُ نفسي بعماد بهرام الكبير بن القدرة. وعمادي سيحرسني ويرفعني إلى الأعلى إلى البدء –أي أوج الكمال ببيت الحياة– إسم الحياة واسم منداهيي منطوقان عليّ».

---

(٧) ألنار إشارة للديانة الزرادشتيّة المجوسيّة.

(٨) يقصد زيت موسى، والأرجح أنّها تعني موسى، وهي إشارة إلى الديانة اليهوديّة التي يكرهها الصابئة.

(٩) ألمسح، يقصد بها الديانة المسيحيّة أو المسيح.

(١٠) البردنة، في الأصل تعني نهر الأردنّ حيث كان يوحنا يعمّد أتباعه. ومع مرور الزمن أطلق الصابئة لفظ البردنة على كلٍّ ما هو ماء جار.

وأخيرًا يغمس قدَمَه اليمنى في النهر مرّتين، واليسرى مرّة واحدة، قائلاً : «لتبتعد عن قدماي ويداي سلطة السبعة -كواكب- والاثني عشر -علامات البروج- إسم الحياة واسم منداهيي منطوقان عليّ»(١١).

خامسًا - الصلاة

ألصلاة فرض مكتوب على الصابئة المندائيّة يؤدّونها في اليوم ثلاث مرّات. وتقتصر صلاتهم على الوقوف والسجود دون الركوع على الأرض. وتستغرق تلاوة الاذكار فيها ساعة وربع الساعة تقريبًا. وتؤدّى قبل طلوع الشمس، وعند زوالها، وقبيل غروبها. وتفضَّل الصلاة جماعةً أيّام الآحاد، وفي الأعياد.

يتوجّه المصلّي نحو الشمال (إلى الجدي)، بلباسه الطاهر، حافي القدمَين، رافعًا يدَيه مع انحناءٍ قليل. ويتلو سبع أذكار، يمجِّد فيها الخالق. ويدعوه بأسمائه الحسنى.

---

(١١) ومما يفسد الوضوء: ألبول، والغائط، وخروج الريح، ولمس الحائض، والنفساء، وأكل شيء ما قبل الصلاة. ولا يجوز الجمع بين صلاتين بوضوء واحد، وإن لم يفسد الوضوء. ونلاحظ أنّ الوضوء عند الصابئة قريب من الوضوء عند المسلمين.

يقـول المندائيّـون: إنّ الصـلاة كانـت في عهـد آدم خـمسَ صلوات، وهـي: صلاةِ الصبح والظهر والعـصر والمساء والعشاء، وصلاتين فيما بينهمـا، إلاّ أنّ النبي يحيى (يوحنا المعمدان) خفّف عنهم الصلوات، وجعلها في ثلاث أوقات.

ويحـفظ الصـابئـة عن يوحـنّا قـوله: «أنْ تعـبـدوا اللّه لا تشركوا به شيئًا. وإنّ مثل ذلك كـمثل من اشترى عبدًا من خالص ماله، بورقٍ أو ذهـب، فجعل يعـمل ويؤدّي غلّته إلى غـير سـيّده، فـأيّكم يسـرّه أن يكون عـبـده كـذلك؟ وإنّ اللّه خـلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشـركوا به شيئًا. وقوله: (آمـركم بالصلاة فإنّ اللّهَ ينصب وجهه قبل عبده، ما يلتفت. فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا»[١٢].

ألصلاة «براخـا» عند المندائي، هي ذكـر اللّه في التسـبيح والتبريك والحمـد والاستغفار. وأول مبـدأ من مبادئ الصلاة هو أن يُحبّ المصلّي مخلوقات اللّه، ويطهِّر قلبه من أوجاس الحقد.

تتكوّن الصلاة من شـعيرتَين، هما : ألوضـوء (الرشامة)، سبق وتحدّثنا عنه سابقًا؛ والتبريكات (براخة).

تقتصـر (الرشامة) على الجلوس، قبل بـدء الصلاة، حيث يتمّ التـوضـّـؤ بالماء الجاري النـظيف ثلاث مرّات في الـيوم قـبل

(١٢) مجلة التراث الشعبي (بغداد، ١٩٧٤، عدد ٦-٧، ص ٦٤.

الصلاة، وفي أوقاتها. يتـوجّه المندائي صوب القِبْلَة. على المصلّي ألاّ يرتدي غطاء على رأسه احـتـرامًا للخالق. تقرأ التـراتيل وقوفًا واليد اليمنى باتّجاه شروق الشمس. يتمّ الإنحناء عند ذكر أسماء اللّه الموقرة: «بسم الحيّ العظيم. بسم الحيّ. واسم عـارف الحياة. منطوق عليّ».

تقـتصـر صـلاة الصبح عـلى الوقوف باتّجـاه القِـبْلَة مع السجود كلّما ذكرت كلمة السجود.

صـلاة الظهر تتمّ بعـد سـبع سـاعـات من صلاة الصـبح، وتقتصر على الوقوف باتّجاه القِـبْلَة مع السجود للخالق عند ذكر كلمـة السجـود (سَغِـدتا). وهذا نصّ صلاة الظهـر: «بسم الحيّ العظيم. إنّا للحيّ القديم سجدنا. وللرب عارف الحياة الموّقر، الذي من نفسه تكوّن».

أمّـا صلاة العـصر فـتتلى في وقت العـصر، وقـبل زوال الضـياء، وبعد الانـتهاء مـن الرشامة والـبراخا، وتـقتصـر على الوقوف باتّجاه القِبْلَة مع السجود للخالق عند ذكر كلمة السجود.

وهناك (صـلاة الأحد) الصبـح، وصلاة الأحد (الظـهر)، وصلاة الأحـد (العصر). وصلاة عـيد الستـة أيّام، أو ليلة القدر، وتتلى بعـد وضع الإكليل على أبواب المنازل من قِـبل أهل البـيت، كبارًا وصغارًا. وعلى جميع العوائل المندائيّة، أن تضع على أبواب

منازلهـا إكليلاً من شـجرة الـغَرَب (هيـلاف) الذي يعدّ من قِبل رجال الدين في (المندي)[١٣].

والبسـملة التي يبتدئ الصابئيُّ صـلاته دائمًا (هي ربي)، أي (الحيّ العظيم). وتكتب وتقـرأ دائمًا في بداية جمـيع الطقوس الدينيّة أو الـعامة: «باسم الحيّ العظيـم، إسم الحيّ واسم عارف الحياة منطوق عليّ».

سادسًا – النحر أو الذبح

ألمندائيّون الصابئة يعتقدون بوجوب اتّباع طقوس خاصة، أو شعائر عند ذبح الحـيوان، أو نحره ضحيّة، قـربانًا، أو طعامًا. فإذا كـانت المندائيّة تحلّل أكـلَ الأغنام وأنواع الطيور (كـالدجاج والبط والأوز)، وقسمٍ من الأسماك بقصد الإفادة من لحومها، أو للطقوس الدينيّة، فإنّ النحر يجوز طيلة السنة عدا أيام المبطلات.

وعادةً مـا يوصَى بالنحـر في أوّل كلّ شهـرٍ مندائيّ، وفي المناسبات الأخرى كالأعـياد والأعراس والمآتم، وتراعي في النحر

---

(١٣) ألتفـاصيل راجعـها لدى السيـد محـمد عمـر حمادة، تاريخ الصـابئة المندائيّـين، دمـشق، دار الوثائـق، ١٩٩٨، ص ٩١؛ ومـحـمّـد الجندي، ألمندائيّون الصابئة، دار بيسان، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٩٨٣–١٨٦.

أمور التطهير بالماء أيضًا، إذ يتمّ تطهير السكّين بتسخينها أولاً ثمّ غسلها بالماء. أمّا الحيوان المراد نحره فيتمّ تطهيره أيضًا بالماء (طْمَاشه)، أي تغطيسه. كما أنّ القائم بالنحر يجب أن يكون صحيح البدن، ويفضل أن يكون حلاليًا[١٤]، وأن يرتدي الملابس الدينيّة (الرستة)، وأن يتوضّأ، ويقرأ صلاة النحر وهي:

«باسم اللّه العليم، وباسم النورانيّين، نحرًا زكيًا يهب قوّة وعافية، لكلّ الذين يأكلون منها، واسم اللّه العليم مذكور عليك».

ويتمّ النحر بوجود شخص ثانٍ (حلالي)، بمثابة الشاهد، حيث يجلس الناحر، بعد أن يغسل يديه، ويكون الشاهد (الحلالي) واقفًا، فيتمّ نحر البهيمة.

والمندائيّون لا يجوّزون للمرأة القيام بعمليّة النحر، كما لا يجوز النحر بعد غروب الشمس، باستثناء أيّام عيد الخليقة. وعلى الناحر أن يقرأ سورة التحلّل من خطيئة النحر «التهليل»، وهو جالس بعد انتهائه من عمليّة النحر. وتتمّ عمليّة تطهير المنحور في مكانِ النحر بالنار أو الملح[١٥].

وهكذا نجد أنّ وجود شخص سليم هو أوّل شرط للقيام

---

(١٤)أي ينتسب إلى عائلة دينيّة، سالمة من جهتي الأب والأم لعدّة أجيال.

(١٥) محمد الجزائري، المصدر السابق، ص ١٨٦–١٨٧.

بمراسم الذبح عند الصابئة، لأنّ سلامة الذابح من أيّ مرضٍ معدي يؤكّد على سلامة الوضع الصحي للذبح. إضافةً إلى ذلك يجب على الناحر أن يلبس لباس الرستة الأبيض النظيف. ومن الشروط الأخرى لأداء مراسم الذبح أن تكون سكّينة الذبح حديديّة وحادّة، وقد وضعت قبل الذبح في النار الحامية(١٦).

ثمّ يأتي دور الحيوان، أو الطير، المراد ذبحه، فيجب أن يكون سليمًا، لا نقصان فيه، فيتمّ غسله بالماء الطاهر بشكل جيّد. وإذا كان طيرًا، فيأخذه بيده اليمنى بحيث يصبح جناحاه على راحة يده، ورأسُه في تصرّف إصبعَي الإبهام والسبابة، ويتمّ الذبح جلوسًا، والذابح متوجّه نحو الشمال. ويبدأ الذبح بقراءة الآية الآتية معرّبة:

«بسم اللّه المتعال. ليباركك إسم الملك مندادهيي، الملك المقرّب من العرش، عليك أيّها الذبح قد ناداك الملك إبتاهيل، الملك المقرّب من العرش الأحادي للعروج إلى اللّه، وتفقدك الملك ملكاهيول زيوا. كلّ مَن ذبحك كان من الطاهرين. وكلّ مَن تناول من لحمك ستكون حياته ملأى بالسعادة والسلامة. عليك اسم اللّه واسم الملك، ملكا مندادهي، الملك المقرّب من عرشه».

---

(١٦) يجب أن تغطّى يد السكّين الحديديّة، بقطعة خشب من شجرة غير مثمرة.

وبعد انتهاء الذبح، تأتي مرحلة طلب الذابح الاستغفار من اللّه. ويتمّ ذلك على النحو التالي:

يأتون بوعاء مملوء بالماء، ويسكبون على يد الذابح والسكّين المدمّاة، فيقرأ الذابح أثناء سكب الماء على يديه الآية الآتية[١٧]:

«ليباركني اسم اللّه المتعال، واسم الملك ملكا منداد هيي، المقرّب من عرشه، إنّني قد أدّيت عمل الذبح بسكّين حديديّة[١٨]، بأمر من اللّه تعالى. وإنّه غافر لذنوبي. ألّلهمّ اغفرْ لي ذنوبي وارحمني، ولا تحرمني من شفاعتك. ليبارك اسم اللّه المتعال، وملكا منداد هيي، فلان بن فلانة دائمًا». وبذلك تكون قد انتهت عمليّة ذبح الطير.

أمّا في ما يتعلق بذبح الحيوان، وغالبًا ما يكون ذكَرًا[١٩]، فمراسمه، بعد أن يطهّر الحيوان بالماء، تهيًّأ له قبل الذبح وسادة

---

(١٧) لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الذابح يستطيع تطهير يديه في ماء النهر الجاري.

(١٨) مشروعيّة الذبح هي في الحقيقة تنظيف اليدين من الدم بعد خروجه من منحر الطير الذي يحتوي على الجراثيم.

(١٩) كما قلنا سابقًا لا يجيز الشرع الصابئي ذبح إناث الغنم، لأنّه قد ورد في كتاب كنزا ربّا، كتاب الصابئة المقدّس: لا تذبحوا الحيوانات الولودة.

(جباشه)[٢٠]، تُفرش على الأرض لكي ترفع الذبيحة عن الأرض حتى لا تلامسها[٢١]. ثمّ تقيّد أيدي وأرجل الخروف بالحبال المصنوعة من خيوط، أو القماش الأبيض، أو الحبال المصنوعة من ألياف النخيل.

ويتوجّه الذابح بها نحو الشمال. ويغسل يديه بالماء الطاهر. وبعد تلاوة بعض الآيات -سبق ذكرها-، يبدأ بنحر رأس الخروف. وعند الانتهاء، يبدأ بالتحليل وقراءة الآية الخاصّة. ويأخذ مشعلاً من النار يتكوّن من عيدان القصب، ويشعله، ويقرّبه إلى منحر الحيوان وإلى دبره، وكذلك إلى الأماكن التي سال الدم إليها أثناء الذبح. وبعد ذلك يرشّ الملح على منحر الحيوان المذبوح وعلى دبره[٢٢].

سابعًا - الصيام

قال يوحنا المعمدان (يحيى النبي): «وآمركم بالصيام، فإنّ

---

(٢٠) القصد من هذا العمل الحيلولة دون تلوّث الذبيحة بالتراب.

(٢١) وهي عبارة عن كميّة من التبن اليابس المغسول، أو القصب، أو من أغصان بعض الأشجار مثل الحور، أو الصفصاف.

(٢٢) سليم برنجي، الصابئة المندائيّون، ص ٢٣٦-٢٣٨.

مَثَل ذلك مثل رجلٍ معه صُرّة من مسك في عصابةٍ كلُّهم يجد ريحًا. وإنّ خلوف في الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[٢٣].

وهكذا يؤكّد أنّ الصيام كان مفروضًا على الصابئة المندائيّة. ويؤكّد ابنُ النديم فرض الصيام على الصابئة فيقول: «والمفترض عليهم الصيام ثلاثون يومًا. أوّلها لثمانٍ مضين من اجتماع آذار، وتسعة أخر، أوّلها لتسع بَقين من اجتماع كانون الأوّل، وسبعة أيّام أخر، أوّلاً لثمانٍ مضين من شباط»[٢٤].

أمّا اليوم، فإنّ الصابئة يصومون، بالإمتناع عن أكل اللحوم المباحة لهم والسمك والبيض ٣٦ يومًا، متفرّقة بأيّامها على طول السنة، ويسمّون هذه الأيّام «مبطلات» حيث يبطل فيها النحر[٢٥].

وممّا ورد في كنزا ربًّا (صحف آدم) :

– صوم إينيخون من مير مزريمرا، ولاتبهزون بيشوتا، ويتودون.

– صوم أودينخون من مصوتي، أل واوي أدار ديلخون.

---

(٢٣) مجلة التراث الشعبي، ألعددان ٦–٧، (١٩٧٤)، ص ٦٤.

(٢٤) الفهرست، ص ٣١٩.

(٢٥) الصابئون، ص ١٠٩.

- صوم بوميخون من ميمركذبا أداولا، وزيفا، وشقرا.

- صوم لبيخون من هشوبي بيشوتا، وسينا، وقينا وبلوغي آب لبيخون لا تهوى أدمن اذ لاغط فينا شلمانا لامتيقري.

- صوم إيديحون من ميكطل كاطلا وكنواتا لايتكنون.

- صوم بريخون من زوالود يلخون هيي.

- صوم بركيخون من مسفدال سطانا، وال صلماتا ادزيقا لاتربخون.

- صوم لغريخون من مسكوى اب نيخلا.

- صوموي ال هازن صوما ربا ولا تيشرون المأ اد نفقتون من يغريخون.

وترجمة النصّ المندائي ما معناه:

«يا أيّها المؤمنون لقد قلنا لكم إنّ الصيام الأكبر هو ليس امتناعكم عن الأكل والشرب، وإنما غضّ النظر عن النظرات الشيطانيّة والسيّئة وعدم استراق السمع وأقوال الناس في بيوتهم.

«لا تتفوّهوا بالكذب والأقوال السيّئة. وطهّروا قلوبكم من الحسد والضغينة، وعقولكم من الأفكار السيّئة والشرّيرة والمنافقة، لأنّ المنافقين ليسوا بمؤمنين.

«ألصوم هو أن لا تقتلوا ولا تنهبوا ولا تسرقوا.

«ألصوم هو أن لا تقربوا غير نسائكم.

«ألصوم هو أن لا تنحنوا للشياطين والأصنام وآلهة الكذب.

«ألصوم هو أن لا تسيروا في الطرق الخاطئة.

«صوموا هذه الأيّام العظيمة الكبيرة، لكي تتحرّر روحكم من سجن البدن»[٢٦].

وأيّام الصيام موزّعة على الشكل التالي:

يومان قبل العيد الكبير (٢٨–٢٩ كانون الثاني)،

أربعة عشر يومًا بعد العيد الكبير (١–١٤شباط)،

خمسة أيّام قبل عيد الخليقة (البنجة) (٢٦–٣٠) أيلول،

ويوم واحد بعد عيد الهبات (٢ كانون الأوّل).

ويمتدّ مفهوم الأضاحي إلى ذبيحة إبراهيم (تك ٢٢/ ١٤١).

---

(٢٦) محمد الجزائري، المصدر نفسه، ص ١٨؛ وسليم برنجي، المصدر نفسه، ص ٢٤٠–٢٤١؛ ومحمد عمارة، المصدر نفسه، ص ٩٢–٩٣.

جدول بالأيّام التي يُحرّم فيها الذبح[٢٧]:

الشهر	الأيام
شباط (شهر العيد الكبير)	من ١ إلى ١٤ و ٢٢.
آذار	٢٥.
نيسان	....
أيّار	١–٤.
سيوان	....
تمّوز	٩، ١٥، ٢٣.
آب	....
أيلول (شهر البنجة)	٢٦–٣٠ (الأيّام الخمسة التي تسبق البنجة).
تشرين	١ (بعد البنجة مباشرة).
شروان	......
كانون	٢ (أليوم الأوّل منه عيد دهفه دمانه).
طابيت	٢٨ ، ٢٩ (كنشبي وزهلي في اليوم الثلاثين منه).

---

(٢٧) محمد عمر عمارة، المصدر نفسه، ص ٩٢-٩٣.

الفصل الحادي عشر

ألحياة الإجتماعيّة

توصي الديانة المندائيّة (الصابئيّة) بالزواج بحسب ما جاء فيها: «وأمرنا أن اتّخذوا لأنفسكم أزواجًا تعمر بكم الدنيا»؛ وأيضًا: «أيّها الرجل! إتّخذ لنفسك زوجة، وليُحبّ ويرحم أحدكما الآخر»[١]. وهكذا تكون الرهبنة محرَّمة في الدين الصابئي، لأنّها ضد الحياة التي عندهم محور الدين وجوهر العقيدة[٢].

وإنّه من الخطأ الفادح لدى الصابئة أن يبقى الصابئيّ أعزبًا، بل إنّ الزواج فرض على من يستطيع القيام بواجبه. وليس

---

(١) محمد الجزائري، المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(٢) إن الروحاني (ترميذة) الذي لا يتزوج لا يحق له أن يرقى دينيًا إلى مرتبة أعلى من مرتبته، أو درجة (كنزفرة)، مهما بلغ كماله الديني، أو عمله اللاهوتي، لأنّه يعتبر ناقصًا، ولا يكتمل إلاّ بذرّيته عن زوجته، ويعامل ذات المعاملة فيما إذا تزوّج ولم ينجب أطفالاً.

للأعـزب مكان فـي عـالم النور (الجنّة)، ولا جنّة لـه في الدنيـا. ويستطيع الرجل أن يتزوّج ما شـاء من النساء إن استطاع القيام بذلك ماديًا ومعنويًا، مع أنّ الصابئة يفضّلون الزواج بواحدة.

أوّلاً - الخطبة والمهر

يتمّ اختيار العروس، إمّا عن طريق التعارف خلال الحفلات أو الأعياد، أو الـزيارات العائليّة والمناسبـات الدينيّة، أو عن طريق الأهل، الذين يقومون بزيارة بيت الفتاة، وطلبها من أهلها، بعد أن يكون الشاب قد وافق على ذلك بعد مشـاهدته للفتاة واقتناعه بها زوجًا له. وغالبًا ما يختار الشاب إبنة عمّه، أو إبنة خاله.

والمهر غير محدد عند الصابئـة، فالشاب يقدّم ما يستطيع. إلاّ أنّ عليه أن يقدّم لخطيـبته ما تحتـاج إليه من الملابس والحَلي، وما زِنَتُه حُمُّصة من الزعفران، ومقدارًا من الشنان[٣]، وقطعة نقد من الفضّـة، تقدّم لأمّ الخطيـبة، رمزًا لـتعهّـدها الفتـاة. وتسمى العمليّة (حقّ ربيثة)، أي حقّ التربية.

ويتمّ خلال المراسم الدينيّة لـلخطبة ذكر (الملواثة)، (الإسم الفلكي) للشاب والفتاة. ويجري أوّل تعـميد للخطيبَين يوم الأحد.

---

(٣) شنان مادّة من النبات تستخدم للتنظيف.

وقبل البدء بالتعميد، يتمّ التأكّد من عذرية الخطيبة، فتقوم زوجة الكنزفرة وإحدى النساء الخبيرات بالتأكّد من ذلك. فإذا كانت النتيجة إيجابيّة تمّت عمليّة التعميد، وإلاّ فإنَّ الخطيب يُخَيَّر في إتمامها أو إلغاء الخطبة.

وتجرى عمليّة التعميد للعروس أوّلاً، ثمّ للعريس. وبعد خروج العروسين من الماء، عليهما أن يدورا حول (الطريانة)[٤] والنار، متّجهَين من الجنوب إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الشرق. ثمّ يعودان إلى جنوب (الطريانة). وبعد إنتهاء المعموديات يتبخّر العروسان، ويرتدي كلٌّ من منهما «رستة» جديدة.

ثانياً – الزواج

وتُهيا للقسم الثاني من المراسم، ويُجرى العماد الثاني في يوم الأحد التالي، ويُقام كوخ الزواج (أنديرونا) في ساحة الدار. فيجلس العريس أمام باب (الانديرونا)، وتسمى أيضًا (الإشخنتة)، وظهرُه للقبلة، وقبلة المندائيين باتّجاه الشمال.

---

(٤) وعاء طيني فوقه شعلة من النار مع البخور.

و(الانديرونا) عبارة عن بيت مصنوع من قصب موجود في داخل المندا. وطريقة بنائه كما يلي:

تقوم (الإشخنتة) على اثنَي عشر قائمة، وكلّ قائمة تتكوّن من قصبتَين؛ وبالتالي يكون مجموع القصبات أربعة وعشرين قصبة. وقد سوِّيت أرضه الداخليّة بالجبصين أو أي مادة راصفة أخرى. وتكون الإثنا عشر قائمة على ثلاثة صفوف من القصب بصورة أفقيّة، وتربط بواسطة أربطة مصنوعة من ليف شجر النخيل مع بعضها. أمّا باب (الأنديرونا) فيكون بكسر القصب من الأمام بحيث يكون هذا الباب متَّجهًا نحو الشمال. أمّا سقفه فيتكوّن من ثلاثة صفوف من القصب. وبعد الإنتهاء من عمله، ولإكساء سقفه بصورة كاملة، يضاف إليه عدد من القصبات.

أمّا الغرض من (الأشخنتة) فهو أنّ العريس بهذا العمل يُفهِم العروس بأنّ بيته هو عدّة قصبات وليف نخيل. ويجب أن تعيش معه على هذه الحال، «وإنِّي أهديكِ هذا البيت لأنَّكِ لم تتزوَّجيني من أجل المال والجاه»، ولأنّ زواجهما يجب أن يتمّ مقروناً بالتفاهم.

ثمّ يأتون بالعريس ويجلسونه أمام باب (الإشخنتة)، ويأتون بسلّتين، كل واحدة منهما تحتوي على ألبسة، إلى باب (الإشخنتة)، ويلوّحون بهما، ويأخذونهما كهديّة من العريس إلى

العروس؛ بينما يجتمع المحتفلون في الساحة الخارجيّة، يرقصون ويمرحون، ويعزفون على الآلات الموسيقيّة، ويشربون القهوة.

ثمّ يصل (الكنزفره)، يساعده كاهنان يملآن الأدوات الضروريّة والأغذيّة الطقوسيّة، التي تُستخدم في الاحتفال. ويتفقّد ملابس العريس (الهستة)، قطعة قطعة، ليتأكّد من أن «الهميانة»[٥] قد عُقدت بشكل صحيح، وأنَّ كلَّ قطعة من ملابسه بوضعه الصحيح.

ثمّ يقوم الكنزفره بإلباسه «السكّين دولة»[٦]، واضعةً حلقةَ الحديد في خنصره الأيمن، والسكّين الحديد في زنّاره. وعلى العريس أن يلبس «السكين دولة» ليلَ نهار إلى يوم عماده وتطهيره الثالث، الذي سيتمّ بعد سبعة أيّام من دخوله على عروسه. وليس من الضروري أن يضعها في إصبعه دائمًا، بل يضعها في جيبه، أو تحت وسادته، أو بجانب فراش عروسه.

ثمّ يرسل (الكنزفره) أحدَ الكهّان إلى العروس ليتفقّد «الرسته»، وليسألها رسميًا أمام الشهود، إذا كانت راغبةً بالزواج

---

(٥) الهيمانة، هو الزنّار العريض من القماش، أو نسيج من الصوف.

(٦) « ألسكّين دولة» سكّين من حديد تصلها سلسلة حديديّة يختم عليها نقوش حيوانات وزواحف وحشرات. يعتقد الصابئة بأنّها شعار دولتها التي كانت فيما مضى ثمّ زالت.

من العـريس. ثمّ يقوم بوضـع خـاتمَين في خنصرها، أحـدها ذو حجـر أحمـر في الخنصـر الأيمن، والآخر ذو حـجر أخضـر في الخنصـر الأيسر. ثـمّ يصبّ الكاهن الماء على يدَيهـا من الإبريق، ويقدّم اللّوز والزبيب لتأكل، وماءَ الإبريق لتشرب.

وتقـام بعد ذلك (الزدقـة بريخـة)، حيث يتناول العـريس والمحتفلون الطـعام المقدّس الذي هيّأه الكهّان. ويـتألّف من الجوز والبصل والطرشانة والزبيب واللّوز، والسـمك المشوي، وَوَصَا[٧] والملح وقنّينة مملوءة بالخمر (همرة)[٨].

ويجب على الكنزفرة تحـضير هذا الخمر في اليـوم نفسه وإلاّ أصبح فـاسدًا[٩]. ويقـوم بتوزيع (الصـا) إلى قسـمَين بين العريـس والعروس، بعد أن يـضـع فيهـما قليـلاً من كلٍّ نوع من أنواع الطعام المقـدّس. ثمّ يصب الماء على يد العروس، ويقـدم لها (الصـا)، ويقـول لهـا: «هذه المرّة بدور العـريس. كُلِي هذا، ولا تأكُلِي إلاّ مني». أي إنّ عريسـها، من الآن فصاعـداً، هو المسؤول الوحيد عنها، وإنّه يطلب إخلاصها.

---

(٧) وصا: رقاقة دقيقة من الخبز مستديرة ومكوّرة كالخرز.

(٨) الخـمر (همـرة) يتألّف من المـاء والزبيب والتمـر بعـد خلطها وطحنهـا فينتج سائل بنّي منها يسمّى (همرة).

(٩) محمد عمر حمادة، المصدر نفسه، ص ١٣٩–١٤٠.

ويوزّع الكنزفرة بعد ذلك الطعام على الحضور، وما تبقى من الطعام يُلقى بالنهر.

ويخاطب الكنزفرة العريس ويقول له : «لا تخاطبك زوجتك بصوتٍ مرتفع أبدًا. ولا تؤذها ولا تهملها. وفي كلّ الأحوال لا تجعلْها وحيدة. ولا تأكل الأكل، أو تلبس لباسًا بدونها. فإذا لم يكن لديك سوى بذرة تمْر، يجب أن تقسمَها بينك وبينها؛ لأنكما روح في جسدَين. أعتنِ برعايتها. وابتعد عن السرقة، ومعاقرة الخمر، والفساد؛ لأنّها تسبّب تدمير الحياة الزوجيّة. كن عصاها التي تستند إليها في أيّام المحن. ولا تخونها. واعمل من أجل سعادتها».

كما يخاطب العروس قائلاً: «حينما يعود زوجُكِ إلى البيت استقبليه بوجهٍ باسمٍ. وهيِّئي له وسائل الراحة. واحضري له الماءَ النظيف للإستحمام. ولا تفكّري أبدًا بأنّه يخونكِ. وابتعدي عن الأعمال المنكَرة، كالكذب والسرقة وما إلى ذلك».

وأثناء قراءة الآيات يقوم الكنزفرة بضرب رأس العريس برأس العروس من الخلف ثلاث مرّات.

بعد العماد الثاني للرجال بصورة إفراديّة، يتمّ تعميدهم بشكل جماعي. وبعد انتهاء التعميدين يأخذون جميعَ العرسان (إذا كان الزفاف جماعيًا عند حافات النهر)، ومنهم أوّل زوجَين

تقرّر عقد قرانهما قبل الجميع، سواء بشكل منفرد، أو منعزلَين عن بعضهما إلى المندى[١٠]. وتقام في داخل مراسم التعميد.

ثمّ يدخل بقيّة الأزواج المندى، سواء للفرجة أو لانتظار عقد قرانهم داخله. وبعد إدخال العروس والعريس إلى المندى، حيث تنتظر في تلك الغرفة برفقة صحبتها لإتمام بقيّة المراسم. وفي مكانٍ آخر من باحة المندى يخلع العريس رستته المبتلّة، ويلبس رستة أخرى نظيفة وجافّة. والشيء نفسَه تقوم به العروس جانبًا، في داخل غرفتها.

وبعدها، يذهب الترميذة إلى حجرة العروس لكي يطلع على أحوالها ويسألها هل أجبرها أحد على الزواج أم لا. فإذا علم بعدم موافقة العروس على هذا الزواج يرجع إلى الكنزورا، ويطلعه على الأمور. وفي هذه الحالة لا يُقدم الكنزورا على عقد القران، لكي لا يقع ظلم على العروس، ويستطيع بدورها أن تختار شريك حياتها المستقبلي في ظلٍّ حرّيتها. والهدف من ذلك أن يكون القران مقترنًا برضى الطرفين.

ومع وصول خبر موافقة العروس من قبل الترميذة، يبدأ الكنزورا بإجراء مراسم عقد القران، أي يأخذ كتاب (القلستا) الخاصّ بمراسم الزواج، والحاوي على آيات وأحكام عقد القران،

---

(١٠) الإسم الثاني للمندى في اللغة المندائيّة، وهو مشكنا.

ويجلس أمام باب «الإشخنتة مديرًا ظـهره للقبلة (الشمال). وفي نفس الوقت يقف العريس في إحدى زوايا المندى بانتظار الأوامر. وبإشـارةٍ من الكنزورا، يتّجـه نحوه، ويقف إلى جـانبه الأيـسر، ويمسك بيـده اليـمنى جـزءًا من نصـيفـه (أي شـال) الكنزورا، ويرافق الإثنَين (الإشكـندا)، وهو يحـمل جـرّة بيـده، ويقف على الجانب الأيمن مع الكنزورا.

ومع اتخـاذ الإشكندا والعروس والعـريس أمكنتَهم، يـبدأ الكنزورا -بعـد ذكـر اسم الـلّه- بتـلاوة الآيات الخـاصّـة لبـدء المراسم. ويسـتـمرّ هكذا إلى أن يصـل إلى بعض الآيات. وعندها يرافق القراءةَ أصواتُ الزغاريد والتـهليل. فيرفع الإشكندا الجرّة عاليًا، ويضربها بكلٍّ قـوة على الأرض. ومع كسرها تملأ الأجواء بالأفراح. وبعد كسرها، يدخل الكنزورا يرافقه العريس إلى داخل الإشـخنتة.

يجلس الكنزورا في الجانب الأيمن، والعـريس في الجانب الأيسر من الإشـخنتة. ثمّ يشير الكنزورا إلى الإشكندا أن يأتي بـ «تريانا»[١١]، إلى داخل الإشـخنـتة، وعليهـا طعام يتكوّن من خـبز وبصل وملح وتمر وزبـيب ولبّ الجـوز ولحم (غـالبًـا مـا يكون

---

(١١) التريانا، هي عبارة عن طين، أو زجاج، يشـبه الصحن، أو أحيانًا تكون من الفخار، أو من عيدان الأهوار.

سـمكًا) ولوز وفـواكه وخـضـروات. ثمّ «تريانا» أخـرى عليهـا الزعفران والصابون والمشط حتى يستفاد منها عند الضرورة.

ومـا أن يـسـمع الإشكندا أوامـر الكنزورا حـتّى يدخل الإشخنـتة حامـلاً بيده «التـريانا»، ويقول: «سـلام اللّه عليكم». فيجـيبه الترمـيدان والكنزورا والعريس: «عليكم السـلام ورحمة اللّه». ثمّ يضع الاشكـندا التـريانا أمـام الكنزورا. وبعـد أن يلفظ اسم اللّه، يطهّر يديه، ويقـسم الغذاء الموجود في التريانا الـكبيرة إلى تريانات صغيرة، يصل عددها إلى ثمانية.

بعد هذا العـمل يقسم الكنزورا سـتـة وعشرين رغيـفًا من الخـبـز كانت قـد أُحـضـرت في طبق من قـبل، ووضـعت داخل الإشخنتة على ثلاث تريانات صـغيرة، يضع على كلٍّ تريانا ثلاثة أرغفة، بحيث يصل المجموع إلى أربع وعشرين رغيفًا. أمّا الإثنان الباقيان فيقسمهما بين التريانة الكبرى وباقي التريانات.

وبعد تقسـيم الأرغفة والطعام، يشـهّـد الكنزورا في البداية التـرمـيذة الموجود على يمينـه، ومن ثمّ الترمـيذة الموجـود على يساره. ثـمّ يشـهّد جـميعَ الحـاضرين بأن يكونوا شـاهدِين على أعماله في إجراء مراسم عقد القران.

ثمّ يتوجّه إلى والد العـروس الذي يجب أن يكون حاضرًا، ويقـول له: «يا والدَ العـروس! تقـدّمْ إلى هنا»؛ لأنّه، وحـتى هذه

اللحظة، فـإنّ والد العروس مـوجود خـارجَ الإشـخنتـة. يقف في باحـة المندى، ينتظر القـيـام بواجـبـاته لكي يقـوم بالنيـابة عن العـروس، ويضـع يده في يـد العـريس. ومع سـمـاع هذا القـول يتوجّـه الكنزورا، وهو يلبس لباس الرستـة الطاهر، متوجّـهاً إلى الإشـخنتة. وأثنـاء دخوله يقـول: «سـلام اللّه عليكم». ويجـيبه الحاضرون: «سلام من اللّه صاحب العظمة عليك».

وفي أثنائهـا يكون والد العروس موجـودًا مقابـل التريانا الكبـيـرة الموضـوعـة أمام الـكنزورا، ويقف وظهـره إلى القـبلة (الشمال).

وفي نفس الوقت يأمـر الكنزورا العـريس ليضع يدَه بيـد والد العروس من أجل (إبرام العهد)، ويسمى هذا بـ (إيد كشطا). ووالد العـريس يقوم بهـذا العمل بالنيـابة عن العروس، فـينهض العـريس من مكانه ويحـيّي والد العـروس. وبعـد أن يذكـر اللّه، يضع يده اليمنى بيده (أي يصافحه).

وبعد المصافحة باليـد اليمنى بين العريس ووالد العروس، يتوجّه الكنزورا إلى العريس، الذي يقول ما تعريبه عن المندائيّة:

«إنّ هذ العهـد الذي عاهدتُ به هذه الفتاة فـلانة بنت فلانة (يذكر اسمها الديـني في الملواشة) بنت هذا الرجل فلان بن فلانة (يذكر اسمه الديني أو ملواشة والـد الفتاة)، بشـهادة من اللّه ربّ

العالمين، ومن الملك منداد‌هي، وبشـــهادة الملائكة شلمى ندا وأثري، وبشـــهــادة الملائكة حـرّاس الميـاه الجـاريـة، وبشـــهــادة الملائكة هوشياوكنا ادزدقا، وبشهادة أوثرا المسؤول الأوّل لنقطة المَنهورا في عالم الطهارة، وبشهادة أربعة وعـشرين من الأنبياء الطيّبين، وأخيـرًا بشهادة اللّه الواحد الأحـد، أنّه وحده صاحب هذا العـهد والميثاق الكامـل والكبير، والذي باسمه نبـدأ كلّ شيء وكلّ عمل. وكـذلك بشـهـادة هؤلاء رجال الـدين الذين أقامـوا هذه المراسم، والمندائيّين والناس الذين شاهدوا كيفيّـة إقامة هذا العقد، إنّني لن أعدل عنه أبداً، وسوف أنفّذ جـميع بنوده الصادرة عن اللّه القادر بشكلٍ صحيح. وهو أحكم الحاكمين».

وبعد أن يتمّ العـريس أقواله هذه يتوجّه التـرميذه الواقف إلى اليـسار نحو الـعريس ويقـول ما تعريـبه: «لا تنقضْ عـهدَكَ وميـثاقك، ولا تنسَ أقـوالك. وكما جـاء في عهدِك لتـكون حافظًا وحارسًـا لقرينتك. تشاركـها الأفراح والأتراح والهـموم. وتكون عـونًا لها. وتكـرّمهـا. وتعـزّها. ولا تلبس لبـاسًا، ولا تأكل أكـلاً دونها. تحسّ بآلامها لكي تحسّ بآلامك. كن لها صديقًا عزيزًا في المحن، ومؤنسًا. واعلم أنّ جميع الاشـياء سوف تقوم بها بأمرٍ من ربّ العالمين. وأنّك عندمـا عقدت عـهدًا مع هذه المرأة وتزوّجتـها، فإنّك في الحقيقة قبلتِ جميع أوامر اللّه، إذ أراد المؤمن أن يرضي اللّه فيجب أن يعمل بأوامره ولا يحِدْ عنها».

ألعريس، وحتّى هذه اللحظة الذي ينصت جيّدًا إلى أقوال الترميذة الواقف على يساره، يقول باحترام ما تعريبه: «لا أنسى العهد والميثاق الذي قطعتُه لها في الحقيقة، هو عهد اللّه العلي القدير، ولن يعدل أي فرد مؤمن وعاقل عن العهد الذي قطعه مع اللّه لأنّه سيكون مسيئاً».

بعد هذه الأقوال التي يدلي بها العريس، يتعاهد مرّة ثانية مع والد العروس ويقومان بما يسمى «بايد كشطا» ويشدّان على أيدي بعضهما البعض، ويقبّل كل منهما يده، ويضعها على جبينه. ثمّ يطلب الكنزورا الذي، وحتّى هذه اللحظة، يكون شاهدًا على الإجراء الصحيح للمراسم من العريس، الجلوسَ. ويغسل العريس يديه بالماء بعد ذكر اللّه لكي يكون مستعدًا للأكل من الغذاء الموجود في التريانا. ثمّ يأخذ الكنزورا لقمة من أصناف الطعام الموجودة في التريانا الكبرى، ويضعها في يد العريس اليمنى، لكي يتناولها كدليلٍ على الفرح والسعادة في الحياة. ثمّ يأخذ لقمة أخرى، ويضعها بيد والد العروس، لكي يطعمها للعروس التي تكون حتّى هذه اللحظات جالسة في غرفتها، وبعد غسل يدها اليمنى التي يناولها اللقمة بها. وبعد أن تسمّي العروس باسم اللّه تأكلها. بعد ذلك يباركها الحاضرون.

ثمّ يطلب من الحاضرين والشهود أن يأكلوا من الأكل الموجود في التريانا، ولو لقمة صغيرة تيمنًا.

وبعد الإنتـهاء من الأكل وجمع التـريانات (الأواني)، يأخذ الكنزورا ثلاث قطـع نقـدية من المعـدن، من النقـود الرائجـة من العريس، ويـقوم نيابة عنه بإعـطائها إلى والدة العـروس، تقديرًا لجهودها فـي تربية العروس وإنضاجـها. ويشكرها. ويطلب من اللّه أن تقوم جـميع الأمّـهات بتحـويل هذه الأمانة إلى المجـتمع، سالمة طاهرة. وبذلك تصبح من المحسنين. وسيكون مأواها الجنّة.

ثمّ يتـوجـه أثناءها الحاضـرون وهم يرافـقـون الكنزورا لتقـديم الشكر لأمٍّ العروس لتعبـها. ويمجّدونـهـا على أنّها ولدتْ بنتًـا طيّبة. ويقـدمون لهـا القطع النقديّـة الثلاث المعدنـيّة. ورغم كونها نقودًا من فئة قليلة إلاّ أنّها تعـتبر هديّة كبيرة، حيث أنّ هذه المحبّـة والتعظيم للأمّ يجعـلانها تنسى متاعـبها التي بذلتْـها في سبيل تربية ابنتها، وتذرف دموع الفرح والشوق من عينها.

وبعد أن يقـدِّم الكنزورا، نيابةً عن العريـس، القطع النقدية الثلاث للعروس تقديرًا لها، يأتي الدور على الإشكندا الشاهد، كي يذهب إلى العروس، ويأخذ منها السلّة التي تحتوي على ملابسـها وملابس العـريس التي يُشاهَد بينهـا وشاح أخضـر، ويدخل بها إلى الإشخنتة، ويـقدّمها للكنزورا. ويبدأ الكنـزورا يساعده اثنان من مساعـديه الترميذة بقراءة الآيات على هذه السلّة. والتـرميذة الواقف على الجهة اليسرى للعـريس عارف لواجباته عند اللزوم،

فيأخذ من السلّة الوشاح الأخضر، ويشدّ على ظهر العريس. ومعنى ذلك أنّ هذا الشال هديّة من قِبل العروس إلى العريس، وكأنّها تقول لزوجها سوف أوفّر لكَ حياة جميلة ملؤها السعادة والبهجة.

وبعد أن يشدّ الترميذة الواقف على جهة اليسار الوشاح حول ظهر العريس، يجلس العريس أمام الكنزورا، متوجهًا للقبلة (الشمال) . ثمّ يقف الكنزورا، ويضع الإكليل الذي بيده على رأس العريس، بعد أن يرفع عنه العمامة. ثمّ يستمرّ الكنزورا بقراءة الآيات. وأثنائها يجب أن يتناول العريس الشراب الذي أحضره الكنزورا لكي يتناوله العريس والعروس، ويتكوّن من الثمر والعنب والهال والزعفران والمحليات الأخرى والمعطّرات.

ثم يأخذ الكنزورا المركنة، التي قلنا عنها في فصل التعميد، إنّها عبارة عن عصي من شجرِ الزيتون، ويرفعها، ويدوّرها حول رأس العريس. ومع ذكر اللّه يقول ما تعريبه: «إلهي! بلطفكَ ورحمتكَ! قد بدأتْ لتوِّها حياةٌ زوجيّةٌ جديدةٌ. إنّك خالق الحياة الكونيّة والأشياء الأخرى. ولقد منحت الحياة البشريّة، ورفعت الطاهرين منهم وتوصلهم إلى الأماكن النورانيّة».

ثمّ يقرأ الكنزورا آياتِ الدعاء. بعد ذلك يأمر الترميذة الايمن بأخذ العريس إلى غرفة العروس، فيعمل بما أمر به

الكنزورا. ويأخذ العريس من يده، ويذهب به إلـى غرفة العروس. وهناك، وبأمـر من التـرمـيـذة، يضع العـريس يدَه اليـمنى بيـد العروس، وتقول له: «ياعزيزي! إنّ العهـد الذي قطعتُه على نفسي بأن أكون زوجًا لكَ سيبقى ثابتًا إلى الأبد».

وفي الجواب، يقـول لها العـريس: «إنّ مرادَكِ سيـنفَذُّ على أسسٍ مـحكَمـة وقويّة لعـهـودنا. وإنّي قـد قبلتُ عـهـدَكِ بقلبي وروحي»[١٢].

وهنا تنتهي مراسم الزواج حـسب السنن المندائيّة. ويودّع الحاضرون العروس بالزغاريد والفرح إلى بيتها[١٣].

---

(١٢) سليم برنجي، المصدر نفسه، ص ٢٠٠-٢٠٤.

(١٣) بعد انتهـاء مراسم الزواج، يجب على العروس والعريس أن يبـقيا في البيت أسبوعًا كـاملاً، سـواء لمعرفة طبـاع كلٍّ منهمـا، أو للإستمـتـاع بالمعاشرة الزوجـيّة. وبعد انقضاء الأسبوع ، أي الأحـد الثاني، يذهبان إلى جوار النهر من أجل التعميد.

ثالثاً - الطلاق

لا يوجد طلاقٌ بمعناه الواسع في الدين المندائي. ولا يحدث الطلاق لأيٍّ سبب. وله، إنْ حدث، شروط خاصّة، منها: ألخيانة، والسرقة، والكذب، وكذلك السلوك السيّء، واللاّمعقوليّة. ويستطيع الفرد المذنب إذ أعلن التوبة، وسلكَ طريق الصواب، أن يمتنع عن الطلاق. إلاّ أنّنا نشاهد اليوم، ونتيجةً لعدم التوافق بين الزوج والزوجة، أنّ الطلاق قد انتشر بين أبناء الطائفة الصابئيّة.

وقد يهجر الصابئيُّ زوجتَه لسبب ما، فلا يمكن لهذه الزوجة الزواج إلاّ بعد وفاة زوجها. أمّا التي تتزوّج من غير صابئيٍّ فإنّها تخرج من عقيدتها، وتصبح في عداد الكفرة. وكذلك إذا تزوّج صابئيٌّ بأجنبيّة[١٤].

(١٤) هناك نقطة لا بدّ من لفت النظر إليها وهي أنّه لا توجد صيغة تسمى صيغة الطلاق في المندائيّة لكي تقرأ هذه الصيغة عند حدوث الطلاق. ويحدث الطلاق، أو فسخ العقد ،بعد أن يتزوّج الرجل بأمراة أخرى. وفي غير هذه الحالة تبقى على ذمّته.

رابعاً - الولادة

ألمحافظة علــى النسل فرضٌ دينيٌّ عند الصــابئة. والذي لا يتزوّج يرتكب خطيئة تؤثّر فيه في الحياة وما بعد الحياة؛ ذلك أنّ الذي لا ينجب أولادًا لا يذهب إلى عــالم النور؛ بل عليه بعــد موته أنّ يمر بالمطهر (مطراتا)، ومن هناك يعود إلى عالم النور.

للطفل مكانة خاصّة عند الصابئــيّة فمنذ وجوده في رحم أمه، وفي شـهره الخامس، ينزل الماء السماوي إلى جسمه، ويكون مشابــهًا له، كما ســيبعث في عالم النور، وحــينما تقترب ســاعة الولادة، فــإنّه يتــوجّب على المرأة أن تغــتسل، وأن لا تمسّ أحــدًا. وبعــد الولادة يُغــسَل الطفــل بالماء والصــابون، وتتمّ الإجــراءات اللأّزمة للتخلص من الحبْل الســرّي الذي يدفن في مكان بعيد عن البيت، أو يُرمى في النهر. ويدهن الطفل بزيت الزيتون والملح.

أمّــا الأمّ فإنّهــا تغتــسل بالماء، من رأســهـا حتى أخـمص قدمَيها. وتتلف جميع الموادّ التي استخدمتْ في الولادة من أقمشة وقطن وغير ذلك. وتَستبــدل الأمّ ملابسَها، وتضـع حلقة (السكّين دولة) في خنصــرها الأيمن، وتدسّ السكّين المتّصلة بهــا بسلسلة في حــزام المرأة. ويوقــد ســراج لمدّة ثــلاثة أيّام. «وتعــاود المرأة الاغــتســال الثــلاثي[١٥] في الأيّام الثــالث، والســابع، والعاشــر،

(١٥) الاغتسال الثلاثي: يغتسل بالإرتماس ثلاث مرات في الماء.

والخامس عشر، والعشرين، والثامن والعشرين من الولادة».
وتصبح المرأة على أثر الولادة معزولةً (صورثه). يجب تجنّب مسّها والاتّصال بها. يُلقى الطعام إليها إلقاء، وتتناوله في طبق معدني[١٦]، يجب استبداله وتطهيره بعد كلٍّ ثلاثة أيّام.

إنّ جميع ما تستعمله المرأة من أوانٍ وأطباق يجب أن يعمّد معها حين يحين موعد تعميدها على يد كاهن. وتَبقى سبعة أيام في شبه دائرةٍ من الحصى، يُستبدل بعد ثلاثة أيّام بحصى جديد. ثمّ يرفع بعد الاغتسال في اليوم السابع.

ويدشن الطفل كأحد أفراد المندائي، وذلك بأن يرشّ، في اليوم الثالث من مولده، مسحوقُ ورق الآس الطري على سُرَّة الطفل. ويقوم الكاهن بإجراء مراسم وضع (السكّين دولة) فوق سُرَّة الطفل. ولا يجوز، في هذه الحالة، أن يمسّ الكاهنُ الطفلَ؛ وإنما يقرأ هذه الصيغة بدون مسّه. وترجمة هذا الدعاء هي: «باسم الحياة العظمى، الصحّة، والطهارة، والختم، والحصانة، والسلامة للروح والجسم، تكون لفلان بن فلان -يكون اسم المولود الفلكي قد استخرج بمساعدة الكاهن- بهذا الختم، وبسرّ أبثاهيل، إسم الحياة وإسم مندادهيي منطوق عليك»[١٧].

---

(١٦) ويجوز استعمال الأواني الفخّاريّة أو الزجاجيّة.
(١٧) الصابئة المندائيّة لليدي دراور، ص ٩٦.

ويجب على الأمّ ووليدها أن يتعمّدا في يوم الأحد، بعد اليوم الثلاثين من الولادة، إذا كان المولود ذكرًا، وبعد اليوم الثاني والثلاثين إذا كان أنثي. وهذا هو الاغتسال الثالث الذي ينهي فترة العزلة. ولا يحقّ للزوج الاقتراب من زوجته إلاّ بعد التعميد. كذلك تفضّل الأمهات تعميد مولودها في اليوم الثلاثين من الولادة، لأنّ الطفل الذي يموت قبل التعميد لا يذهب إلى عالم النور.

وحين يراد تعميد الطفل فإنّ (الحلالي)[١٨] هو الذي يقوم بدور الأب للطفل، فيرتدي (الرستة)، ويبدأ الكاهن بتعميد (تعميد زهريته)، وهو الذي يُدخل الفرد ضمن مجموعة المندائيّين، يساعده قندلفت (شكنده)، فيتلو الكاهن (الرهمى)[١٩]، بإسم الطفل. وفي نهاية الدعاء، يلبس الطفل (رستة) كاملة، وإكليلاً من الآس (كليله). ثمّ تجري عمليّة تعميد الطفل.

وبعد ذلك يؤخذ الطفل حيث يوجد خوان طيني للبخور (طريانا). وينطق الأب بهذا الدعاء: «لكم الصحة والمجد -أو الطهارة- أيّها الملائكة، وأيّها الناس والحرّاس، والمياه الجارية، والجداول الجارية، ومساكن العبادة، وساكني عوالم النور

---

(١٨) أحد أبناء الصابئة، ذو طهارة طقسيّة معيّنة.

(١٩) الرهمى: الدعاء اليومي لطلب الرحمة.

جميعًا»[٢٠]. وبعد ذلك يُسلَّم الطفل إلى قندلفت (شكنده) ليـعيدَه إلى والدته، التي ستجلس وإيّاه باتّجاه الشمال، فوق جذعٍ من النخيل، أو مقرفصةً على قدميها.

وعلى الأم أن تُرضع ابنها. ويحرّم استئجار مرضعة لإرضاعه، كما لا يسمح للصابئيّة ببيع حليبها، وإلاّ فإنّ عقاباً سيصيبها في الآخرة. وعلى الأب أن يتعهّد ولده، ويربّيه تربية صالحة في مجالات الحياة، وخاصة الدينيّة منها، حتّى يصبح صابئيًا مندائيًا نافعًا لنفسه ومجتمعه[٢١].

خامساً - مراسم الموت

يعتقد الصابئة أنّ الموت ارتحالٌ وانتقالٌ للأنفس، وفناءٌ واندثارٌ للأجسام (للإنسان بغره (جسم) وروهه ونشمته (نفس). فالجسد في عقيدتهم آلة مسيَّرة منقادة إلى رغبات الروح، وإطاعة النفس. فإذا مات الصابئي، فإنّ ما تحسب عليه

---

(٢٠) محمد عمر حماده، المصدر نفسه، ص ١٤٧.

(٢١) تدخل العقيدة الصابئيّة في كلّ صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان، فمِن لبس اللباس، والإغتسال، والنظافة، وتناول الطعام، والحلال، والحرام، والمعاملات، والولادة، والحياة، والموت، والآخرة... وغيرها.

هي نفسه فقط. أمّـا الجسد فإنّه مكوّن من مادّة أرضيّـة سيّرتها الروح (الخـلايا). وعليه فـهي تعـود إلى أصلها بعـد الوفاة. أمّـا النفس التي لا يُعـلم كنهها إلاّ (هى ربي قـدمـايي) الحيّ الأزلي، فـإنّها تنتـقل إلى الحـساب في جـسم نورانيّ، لا يعلم كنهـه، أو مادّته، إلاّ اللّه سبحانه تعالى.

وعلى هذا فإن الصابئة يـقولون: إنّ (ملكًا رامه دنهوره)، أي ملك عالم الانوار، أمرَ جبرائيل، (هيبل زيوا)، أن يخلق آدم من طين (ماء وتراب)؛ ولكن على هيـئته (هيئة جـبرائيل). وعلى هذا الأسـاس يقوم حـساب الـفرد الصـابئي في آخـرته على النفس الطاهرة التي وهبـهـا اللّه لآدم، لا على الروح التي تحـرِّك الروح وتديره حسب ما تهواه، وكثيرًا ما تكون تلك الرغبات مخالفات لما يريده اللّه تعالى. فـاللّه سبحانه لا يريد من الإنسـان أن يقتل، أو يزني، أو يسرق، أو يكذب... وإنّ أيّة مخالفة سوف تحاسَب عليها النفس حين توزن. وإذا مات الإنسان، فإنّ الـنفس تعود إلى عالمها الإلهي في جسمٍ نوراني. ويسمّى (بغره كـسيا)، أو (دموتا)، أي النظيرة، أو الشبيه الروحي[٢٢].

---

(٢٢) مجلة التـراث الشعبي، العـدد ١٢ (١٩٧٤)، ص ١٧٨؛ وأيضًا محـمد عمر حماده، المصدر نفسه، ص ١٤٩.

الصابئة يعتنون بالصابئي قبل وفاته، لتخرج روحه طاهرة، فحينما يشعر الصابئي أو أهله بدنوٍّ أجله بسبب مرضه، أو تقدّمه في السّن؛ وقبل دقائق من احتضاره يطلب الماء لكي يطهَّر ويُغسل بدنه، فيحضرون الماء من النهر، ويسخَّن إذا كان الجوُّ باردًا، وتُخلَع عنه ملابسه. وبعد ذكر اللّه وذكر ملواشه (الإسم الديني) للشخص المحتضر يطهّروه بذلك الماء. وإذا لم يطلب المحتضر الماء لغسل بدنه، فعلى الحاضرين حوله مراقبة أحواله وأوضاعه، وإحضار الماء له في الوقت المحدّد. وعندما يلاحظون أنّ المحتضر دخلَ في دقائقه الأخيرة يجب عليهم غسله[٢٣]. ويتمّ ذلك بخلع ملابسه. ويُرفع على الأيدي، ويُسكب الماء عليه حيثُ يتمّ ذلك بعد قراءة الآيات. وبعد أن يغسل المشرف على الموت، يلبسوه الكفن. وهو عبارة عن ذلك اللباس الذي سميناه بالرستة.

جميع هذه الأعمال يجب أن تتمّ قبل الوفاة.

وبعد أن يلبسوا المحتضر الكفن، يجب أن يُسجّى متّجهًا نحو الشمال (أواثر). وأثناء الموت توضع (الاكليلة)[٢٤] تحت

---

(٢٣) والسبب في غسل الميت لأنّهم يعتقدون أنّ الروح يجب أن تخرج من بدن طاهر.

(٢٤) هي عبارة عن خاتم صغير من غصن الآس.

ثانيــة، أي الانبعــاث – وانبعــاث الحيــاة، وغفــران الخطايا تكون لروح فلان بن فلانه صاحب هذه المسختة[٢٩]، لتغفر خطاياه[٣٠].

ثمّ يتقدّمون رجال الدين الأربــعة (الحلاليّون). وبأمر من الريشــا، يرفــعون الجــثمان بأيديهــم اليمنى، ويضــعــونه على رؤوسهم، ويخرجون من الغــرفة، إبتداء من الأوّل الذي يقف عند أرجل الميت. وفي الأخير يخرج الريشــا. وكلُّهم يعبرون من فوق (المندليثا)[٣١] التي ترمز إلى حدّ الإنسان من هذه الدنيا[٣٢].

وبعــد إتمام هذه الأعــمــال يحــضــر الحــلاليّــون. وأثناء التشــييع ولبس الرستة، يجب عليــهم أن يضعوا كمــيّة من المواد المعطّرة، مــثل الدارسين (القــرفة)، أو المعــقمــة، ويضــعونهــا في البندامة (كــمامة). وهي الجزء الأخــير للعمامــة (برزنقا هوارا). يقف الريشا وهو مــتّجه نحو الــشمال، وإلى يمينه بقيّــة الأفراد،

---

(٢٩) المسختة: غفران قداس على روح الميت.

(٣٠) دراور، الصابئة المندائيّون، ص ٢٦٣.

(٣١) المندليثا: عبارة عن حفرة بيــضويّة الشكل، حوالي المتر، تُحفر بالمعول، ويكون عمقها أكــثر بقليل من طول اليد، توضــع فيها كمّــيّة غير مربوطة من القــصب بشكل عــمــودي، ثمّ توضــع قــصــبــات على الأرض أمــام الحزمة القائمة من القصب وثلاث خلفها.

(٣٢) مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني عشر (١٩٧٤)، ص ١٨١.

ويبدأون بقراءة الآيات التالية للترحّم على روح الميت[٣٣]: «بسم اللّه الحيّ الباقي، اللّهمّ اغفر لهذا الميت، واصفح عن ذنوبه، وأنزل على روحه الرحمة والشفقة».

وأثناء قراءة الريشا لهذه الآية، يقرأها معه بقيّة الحلاليّين الثلاثة. وبإشارة منه يلقون البندامة من اليسار إلى اليمين حول أنوفهم وأفواههم، ولا يمكن أن تفتح الكمامة إلا بعد انتهاء مراسم الدفن.

سادساً - فلسفة المندلثا

أمّا فلسفة صنع المندلثا فإنها تعبّر عن انتقال روح الإنسان، أو ولادته في الدنيا الجديدة، التي هي عالم الآخِرة. وتكمن في صنع المندليثا مسألة علميّة ثانية نشرحها علي النحو التالي :

لقد أثبت علم الطبّ الحديث أنّ البويضة، بعد تلقيحها بالنطفة في الحالات الأولى لتكوّنها داخل رحم الأمّ، تنقسم في البداية إلى قسمَين، ثمّ إلى أربعة أقسام أساسيّة. من هنا نرى أنّ

---

(٣٣) سليم برنجي، المصدر نفسه، ص ٢٥١.

الصـابئة، وعند صنع المندليـثا، والتي قلنـا أنّها عبـارة عن ولادة روح جديدة للشـخص المتوفّي في عـالم الآخرة. وقد وقـفوا على هذه المسألة العلميّة، واطّلعوا عليها بشكل كامل. لقد قسموا أعواد مندليّة المتوفّي، كمـا يقسم الجنين في رحم أمّه في حالات تشكّله الأولى في البـداية إلى قسـمَين، ومن ثمّ إلى أربعـة أقسـام، لأنّه، بهذا العمل، أي إنقسام أعـواد المندليثا إلى إثنين، ثمّ إلى أربعة، ثمّ إلى ثلاثة، تدلّ على أنّ مـولوداً قـيـد الولادة والتكوين في عـالم الآخرة والحياة الجديدة.

أمّا الهدف من تقسيم أعواد المندلـيثا وربطها بتسع أربعة وتحزيمها بحبل عاشر طويل فـيدلّ على أن المولود البشري يبقى تسعة شهور في بطن أمّـه، ويولد في بداية العاشر. وبالتالي فإنّ صنع المندليثـا بهذه الطريقـة يعبّر عن أنّ مـولودًا جديدًا ولد في عالم الآخرة .

أمّا طريقة اجتـياز الحلاليّين فوق المندليثا فـتتمّ بالصورة الآتية:

في البداية يجـتاز الحلالي الذي يرفع فـوق رأسه رجلَي الميت المندليـثا برجله اليـمنى. ويقوم الحـلاليّان الآخـران بنفس العمل، أي يجتازا برجليهما اليمناوتين، وهما يحملان الميت فوق رأسَـيهـمـا. ثمّ يأتي الدور إلى «الريشـا»، فيـخطو بدوره فـوق

المندليثا. وأثناءها يسلّم الجنازة إلى الحلاليّين الثلاثة المرافقِين له، ويعود إلى مكانه الأوّل. ومن الطبيعي أن يساعد الحاضرون الحلاليِّين في عملهم. وحالما يفعلون ذلك يتوقّفون. ويعود الرئيس «ريشا» فينحني على (المندليثا)، ويملط أعمدَتها بالطين، ثمّ يختمها بـ (السكين دولة)، وهو يتلو الأدعية.

وتتقدّم الجنازة متَّجهةً نحو المقبرة، يتبعها الرجال فقط، وتكون المقبرة عادة خارج المدينة، أو القرية. وعند الوصول إلى المقبرة يأخذ (الحلالي) معولاً، ويحفر ثلاث مرّات في التربة، وهو يتلو الأدعية. ثمّ يتمّ الآخرون حفر القبر. ويُفضَّل أن يكون عميقًا قدر الإمكان، وتحفر به حفرة إضافيّة خلف الرأس، تترَك خالية تدعى «لحدا». بعد ذلك توضع الجثّة في القبر، متَّجهة دائمًا نحو الشمال، ويوضع فوق (رستة) الميت بعض الأحجار. ويوضع حجر صغير على فمه. بعد ذلك يقوم (الحلالي)، وهو متَّجه نحو الشمال، بإهالة التراب علي الجثّة ثلاث مرّات بواسطة معول، هو يردّد: «باسم الحياة العظمي لتكن (لوفة) و (رواهة) الحياة لغفران الخطايا من نصيب فلان بن فلان، صاحب هذه المسختة، ولتغفر لي خطاياي».

ويقوم المجتمعون بمَلْء الحفرة بالتراب، إلى أن يصبح القبر على شكل رابية صغيرة. ثمّ ينحني الحلالي، ويبلّ القبر من جوانبه الأربعة. ويختم الطين بالسكّين دولة، مبتدئًا من الرأس.

وبعد الإنتــهاء من هذا العــمل، يقوم الريشا، يــساعده الحــلاليّون الثلاثــة، برفع الميت، فيُــخرجونــه بهدوء من البــانية، ويضــعونه داخل القــبر، بــحيث يكون أثناء وضعــه داخل القــبر رأسُــه إلى الجنوب ورجلاه إلى الشمال. وبذلك يكون وجهه باتّجاه الشمال، وهي قِبلة الصابئة.

وبعد وضــعه على هذه الحالة، يفتــحون فمه، ويضــعون قطعة حجر صغيــرة، وكميّة من التراب والهدف من ذلك أن يرى الأحــياء أنّهم قــد خُلقــوا من التــراب وإليه يــعودون. وبعــد ذلك يسحــقون قطعة الخشــب التي تشبه السكّين، والتي حــملها الميت معه، ثمّ يضعونها مــعه في القبر. ويجب أن يكون الريشا أوّل من يهيل التراب على الميت. ويقوم الــريشا، أثناء قراءته لآية الترحم، بوضع التراب وعلى ثلاثة دفعات في أوّل القبر ووسطه ونهايته.

بعد الانتهاء من إعادة التــراب إلى القبر يذكر الريشا اسمَ اللّه، ثمّ يقوم بتخطيط القــبر بشكل دائريّ بواسطة السكين دولة التي يمسكهــا بيده اليمنى. يبــدأ من جهة الــرأس ومن اليمين إلى اليســار بتخطيط القبر والــدوران حوله، بحيث يدور حول القــبر ثلاث مرات، وفي المرة الثــالثة والأخيــرة يخط خطًا بالسكين على تراب القبر من جهة الأرجل وحتى مكان الرأس.

وبعد ذلك ينتــهي الدفن ويعود المشيِّعون مــن القبر. وفي

سبيل الحفاظ على النظافة، يجب على الجميع الإغتسال في الماء، (الطماشة). ويمكن الاغتسال سواء تحت الدوش، أو بماء النهر.

ويجب أن تبقى المندليثا في البيت بعد دفن الميت لمدّة ثلاثة أيّام. وفي اليوم الثالث تلقى في النهر، ويُزال خاتم القبر الذي ختمه الريشا؛ لأنّ الصابئة يعتقدون أنّ روح الميت تبقى تحوم حتّى ثلاثة أيام، وفي حالة ذهاب وإياب ما بين المندليثا وجسد الميت في قبره. ثمّ تقوم أسرة المتوفي، وعلى نفقتها، بإقامة مراسم الفاتحة. وفي حال عدم استطاعتهم يمكن أن يكون غذاء الرحمة عبارة عن خبز فطير فقط؛ لأنّ الهدف من ذلك هو أن يحضروا هذا الغذاء من تعبهم للفقراء.

وفي الديانة المندائيّة، يحضر غذاء الرحمة في الأيّام الثالث، والسابع، والثلاثين، والخامس والأربعين، بعد الدفن[٣٤]. وكثيرًا ما يتمّ ذلك من أجل إطعام الفقراء. أمّا السبب في إقامة (اللوفاني)، أي طعام الرّحمة، في هذه الأيّام المذكورة، هو أنّه في اليوم الثالث تبدأ روح الميت سفرَها إلى السموات؛ وتصل في اليوم السابع إلى (آلما دايتاهيل) إحدى طبقات السموات السبع.

---

(٣٤) إنّ الصابئة وعند إقامتهم الفاتحة على ميتهم في اليوم الثالث، والسابع، والثلاثين، والخامس والأربعين، يعتقدون بأنه يتمّ الحساب بعد ثلاثة أيام من إنتهاء الدفن، وليس في اليوم الأوّل لوفاته.

وفي اليوم الثلاثين تجتاز جميع السموات السبع. وفي اليوم الخامس والأربعين تصل إلى (اواترمـزينا)، والتي قلنا إنّها المكان الذي تحاسب فيه الأرواح وتوزن أعمالها.

وخلال خمسة وأربعين يومًا من إقامة الفاتحة من قبل أسرة المتوفّي، فإنّها، إذا كانت ميسورة الحال، يجب أن تتصدّق على الفقراء وتساعدهم.

والديانة المندائيّة تحرّم الحزن على الميت، وتمنعه بشدّة. ويجب على الصابئة عند موت أحد أقربائهم أن يلبسوا اللباس الأبيض، ويبتعدوا عن ضرب صدورهم، وشدّ شعر رؤوسهم، وتمزيق ثيابهم، وكذلك لبس السواد.

ويعتقد الصابئون أنّ روح الشخص قد أمّنها اللّه وديعةً لديه. فإذا كان اللّه قد أراد أن يستردّ أمانته، فلماذا يحزن أقرباء ذلك الشخص، إذاً، ويقومون بالبكاء والنواح؟! ويعتقدون كذلك أنّ لبس السواد يجعل طريق المتوفّي إلى الجنّة مظلمًا أسودَ؛ وأنّ كلَّ دمعة تُذرف على الميت ستتبدل إلى بحر من الأمواج في الآخرة، تمنع روحَه من الوصول بسرعة إلى الجنّة؛ وكل شعرة تشدّ من أجل عزيز مات، سوف تتبدّل إلى حبل يُقيِّد روحَ ذلك العزيز؛ وكلّ قبضةِ يدٍ يضرب الشخصُ صدرَه حزناً على موت عزيز، ستتبدّل إلى مطرقةٍ تهوي على روح ذلك الميت.

إنّ إطعام الفقراء وتقديم اللّباس لهم خيرٌ من الحزن، لأنّه بهذا سيسامح اللّه أرواح المتوفّين، ويغفر لهم.

سابعاً – غذاء الرحمة والميعاد

يقوم الصابئة بإقامة اللوفاني (دخراني)، أي غذاء الرحمة والميعاد، ترحمًا على موتاهم، وتقرّبًا إلى اللّه. وفلسفة ذلك هو إطعام الفقراء. فهم يعتقدون أنّهم، بهذا العمل، يمكن إطعام الجائعين، وإشباعهم لعدّة أيام. وهذا مما يرضي اللّه، ويجلب المغفرة لروح أمواتهم.

في هذه المناسبة قبل كل شيء يجب تحضير الأطعمة التالية :

١ – السمك، أو اللحم. ويشترط أن يكون لحم الذَّكَر من الضأن، أو الطيور. ٢ – ما لا يقلّ عن ثلاثة أقراص من الخبز.

٣ – بصل يابس. ٤ – ماء من النهر الجاري. ٥ – أجاص.

٦ – ملح. ٧ – رمّان. ٨ – تمر.

٩ – لبّ الجوز أو اللّوز. ١٠ – كميّة من الخضروات والفواكه.

وبعد تحضير الأطعمة، يقوم المشرف على تنفيذ مراسم اللوفاني، إذا كان فردًا واحدًا، فهو يقسم أقراص الخبز الثلاثة

إلى قسمَين. وإذا كانا فردَين أو أكثـر، فإنّ تقسيم الخبز يجب أن يتمّ بشكل جمـاعي، أي إنّ كـلّ شخـصَين يمـسكان بالرغـيف، ويقـسمـانه إلى قـسـمَين. وأثناء ذلك يجب أن ينطقـا بالكلمـات التالية، معرّبة عن المندائيّة:

«أيّها الخـبز! ليـباركك اسم اللّه المتعـال، والمَلَك مَندادهيي المقرّب من عـرشه». ويجب أن تقرأ هذه الكلمـات ثلاث مرّات، مع قسمة كلّ خبزة. ثمّ يرشّ كلٌّ من الحـاضرين على سفرة الطعام، القطعَ الصغيرةَ من الأقراص الثـلاثة، وكمّيّةً من الملح. وبعد ذلك يأكلونها. ثمّ تؤخذ قطعة من الخبز، وتصنع لقمة تحتوي على كلّ الأغذية المـوجودة على سفـرة الطعام، بحـيث يتّسع لهـا الفم. ثمّ يشـربون جـرعة من الماء الموجـود إلى جـانب الطعـام. وأثناءها يكررون الكلمات التـالية : «مبارك اللّه القدير». ويـجيب الشخص الجالس إلى جوار الشخص الذي يتناول الماء: «سلام اللّه عليك».

إنّ تردّد الكلمات الآنفـة الذكر، ممكن أن يتـبادلها جـميع الحاضـرين في مراسم اللوفاني. ثمّ تمسَـكُ اللقمة باليـد اليمنى. فإذا كان القائم على اللوفاني نفـرًا واحدًا، يَقرأ الآية الآتية لوحده، وإن كانوا جماعة فيقرأونها معه.

وهناك مسـألة هامّة لا بدّ من الانتباه إليـها، وهي كيفـيّة جلوس الحضـور في مراسم اللوفـاني. فإذا كـان الحاضـر نفرًا

واحدًا فيجب أن يكون ظهره إلى القبلة (أواثر) الشمال، وإذا كان الحضور أكثر من نفر واحد، يجب أن يجلس كل شخصَين يقابل أحدهما الآخر بحيث يكون أحدهما متّجهًا نحو الشمال والآخر نحو الجنوب، وعندها يقرآن الآية التالية :

«مباركة أيتّها المائدة! باسم اللّه واسم المَلَك منداذهيي، المقرّب من عرشه، إلهي لقد أقمنا هذه المائدة التي تحتوي طعام المغفرة من أجل طلب العفو له منك أيّها الغفور، الخالق القدير، فتقبّل منّا، واجبنا أن نقيم غذاء المغفرة ترحّمًا على أرواح أمواتنا، لكي تغفر لهم، سبحانَك أنت الواحد الأبدي، ومفتاح الطيّبات.

«إلهي! كلُّ ما هو موجود وغير موجود منك، أيّها الشافي الوهّاب، العطوف! نطلب منك العفو والصفح عن ذنوب هذه الروح، إلهي واغفر خطايا روح الشخص في الماضي وكذلك أولئك الذين اجتمعوا باسمك حول هذه المائدة، وكذلك ذنوب المتصدقين والمحسنين.

«إلهي! أنت صاحب هذه المائدة وكلّ ما هو موجود. أغفر ذنوب (تذكر ملواشه المتوفي) يا أرحم الراحمين. نسألك الصفح والمغفرة لأمّه وأبيه، وزوجه وبنيه، ومعلّمه ومربّيه، وكلّ مَن ساهم في تربيته، وكلّ معمّد عمّده. اللّهمّ اغفر لمن سعى في إقامة هذه المائدة».

وهنا يتحدّث الشخص، أو الأفراد الذين يقرأون آيات اللوفاني باسم المتوفي قائلين : «يا والديّ ويا معلميّ وكل المحسنين الذين هدوني إلى الطريق الصحيح، إنّي أطلب المغفرة لكم والرحمة من اللّه الطاهر الأحد؛ لأنّكما كنتما من أشرف على تربية روحي وجسدي.

«إنّ الحياة مستمرّة. وعليكم دائمًا أن تسعوا في إطاعة اللّه الواحد الأزل، خالق جميع الكائنات الحياة. إنّي أطلب المغفرة من اللّه الأحد لكم مَن اجتمعتم على هذه المائدة وأطعتم أمر اللّه.

وبعد انتهاء قراءة هذه الآيات، يضعون اللقمة في الفم. وفي النهاية، كما فعلوا في البداية، يأخذون ثلاث قطع صغيرة من أقراص الخبز، ويرشون عليها الملح، ويأكلونها .وبهذا العمل تنتهي مراسم اللوفاني. بعد ذلك يستطيع الحضور أن يأكل.

هناك مسألة هامّة لا بدّ من التطرّق إليها، وهي أنّ مراسم اللوفاني يمكن إقامتها في جميع ساعات النهار، ولا يجوز إقامتها في ساعات الليل، ما عدا أيّام البنجة الخمسة، حيث قلنا سابقًا أنّه لقدسية هذه الأيّام فلا فرق بين الليل والنهار، ويمكن إقامة اللوفاني والتعميد في هذه الأيام سواء في النهار أو في الليل(٣٥).

---

(٣٥) سليم برنجي، ص ٢٥٧-٢٥٨؛ محمد عمر حماده، ص ١٤٩-١٥٧.

الفصل الثاني عشر

ألعقاب والثواب

يعتقد الصابئة بوجـود عالَم آخر غير عالمنا المادّي هذا. وإنّ هذه الدنيا فانية وفاقدة لأي قيمة، وإنّ الدنيا الأبدية والخالدة هي غير هذه الدنيا التـرابيّة حيث الناس الطيّبون والسيئـون. ويعتقد الصـابئة بوجـود مكانين في عـالم الآخِرة، يسـمّى أحدهمـا (آلما دْنهورا)، أي عـالم الانوار، أو دنيا الطهـارات والنور؛ والآخر هو (آلما دهْشوخا)، أي عالم (الظلام) السيّئات؛ أي الجنّة والنار.

يعـتقـد المندائيّـون أنّ روح كلّ فرد، بعـد الموت، تذهب في البـداية، من أجل وزن الأعـمال، إلى مكانٍ يسـمّى (أوثرمـزينا)، حيث تحـاسب على أعمالهـا. فمَن كانت أعـماله جيّـدة فإلى (آلما دْنهـورا)؛ ومن كـانت أعـماله سـيّـئـة يعـاقب في مكان يسـمى (مطرائي)، وهو مكان معاقبة الأرواح المذنبة. والمطرائي هو مكان من (آلما دهشوخا).

في (أوثرمـزينا)، تحـاكم الأرواح، حيث تشـهـد العيـون والآذان واللّسـان والأرجل والأيدي ... عليهـا. وبناءً على أعمالها، يتّخذ القرار بشأنها[١].

حين تقترب منيّة الانسان يأتي ملك الموت (صاوربيل)، أي (عزرائيل). إلاّ أنّ (قـمامـيرزيوا) يهبط ليـساعـد الروح وليدافع عنها ضد الأخطار. وفي اليوم الثالث، تغادر الروح الجسد نهائيًا، وتكون حالتـها كمن يغطُّ في نومٍ عمـيق. ولا تعود إلى الوعي إلاّ تدريجيًا. وفجأة تتحرّر، وتبـصر (صاوربيل) و(قماميرزيوا)[٢] بانتظارها. وعند مـفـارقتـهـا الجسـد تكون على شكل شـخص يرتدي ملابس، إلاّ أنّها من هواء، وليست حقيقة. فإذا كان المتوفّي من فاعلي الشرّ تكون ملابسه سوداء اللّون. فإن سأل عن السبب أجابه المَلَكان:

«أليست هنالك كتب مقدّسة، مُنحت للإنسان منذ أيّام آدم؟ ألم تر إلى الشمس والقـمر والنّجوم؟ ووهبت عقلاً، فـهلاّ سألتْ: أمِن صُنع اللّه هو، أم من صنع الانسان؟».

---

(١) سليم برنجي، المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٢) صاوريـيل: روح ظلاميّـة، و(قمامـير زيوا) روح نورانـيّة، وهما مـثل مُنكر ونَكير ملكَي الموت عند المسلمين، وجبرائيل وعزرائيل عند اليهود.

وتقول الروح: «يا ليتَني أُعِدتُ إلى جسدي، لأكون صالحةً خيِّرةً، لا أفعل إلاّ حسنة».

ويجيبها الملَكان: «لا مفرّ لك، أيّها الإنسان! فَمَن مِنَ الموتى عاد؟».

بعد ذلك تذهب الروح إلى (إيثاهيل)؛ وتُقاد إلى مقرّها في المطهر، وتُستقبل على بوابّة المطهر بوجبةٍ خفيفة، تتناسب والطعام الطقسي الذي أُكِلَ باسمها على الأرض. فتَعرف الروح أنّ ذويها قد ذكروها. وتستغرق الرحلة خلال المطهر خمسةً وأربعين يومًا للمتوفّي، سواء كان صالحًا أو طالحًا.

وتصل الروح بعد ذلك إلى موازين (إباثر)، حيث توضع الحسنات في كفّة، والسيّئات في كفّة. فإذا رجحت كفّة السيّئات، أو تساوت الكفّتان، بقيت الروح في المطهر، لنيل طهارةٍ وعقوبة، تتناسبان وخطيئتها. فإذا كانت روحًا مشاغبة، فستذهب إلى (مطارثة نيرغ) –مارس–؛ وإن كانت مختالة فخورة، فستذهب إلى مطهر (بيل) –جوبيتر–.

ويحتفظ بمطهرات خاصّة للكهّان.

ويكون التطهير بحسب الخطيئة: فتعذيب الشرّير يتضمّن العذاب بالنار والثلج. ويمشّط بمشطٍ من حديد. وتلدغه الحيّات.

وتنهشه السباع والذئاب والكلاب. فإذا كان على غاية الشرّ، يهبط إلى جوف (أور)[٣]؛ وهي نارٌ مَرَّةً، وجليدٌ مَرَّةً أخرى، حيث ينال التطهير النهائي عندما تقوم الساعة. وحينئذ تُحمل الأرواح التي لا تزال تعاني التطهير إلى الأعلى، بواسطة قوى النور والحياة، أو بواسطة (هبشبة)[٤] نفسه، رحمةً بها. ثمّ تُغمر بمياه (فرات زيوا) السماويّة، واليردنة السماويّة في معموديّة شفاء كبرى ونهائيّة.

وإذا كانت الروح روحَ شخصٍ تقيّ، فلن يأخذ تطهيرها وقتًا طويلاً، إذ بعد توقف طويل، تعود إلى الموازين، وتوزن مقابل روح (شتيل)، أتقى أرواح الكائنات البشريّة. فإذا خفّت كفّة الروح عن كفّة (شتيل)، أرسِلتْ لإعادة تطهيرها؛ وإن لم يكن كذلك، دخلت سفينة نور، تبحر في نهرٍ يحيط بعوالم الأنوار؛ حيث يُقيم ذووه الذين توفُّوا منذ أقدم الأزمان. وقد يكون مقامه النهائي في عالم (يوشامن زيوا)، أو (هيبل زيوا)[٥]، أو (سيمات هيي)، أو عوالم أرواح نورانيّة عظمى أخرى[٦].

---

(٣) عالم الظلام.

(٤) هبشبة، تجسيد يوم الأحد.

(٥) هيبل زيوا: الروح المعلّم للأرض.

(٦) الصابئة المندائيّون، لليدي دراور، ص ٢٨٢.

الفصل الثالث عشر

أيّام والأعياد

تتكون السنة المندائيّة من ثلاثمائة وخمسة وستّين يومًا. إلاّ أنّ كلّ شهر فيها يتألّف من ثلاثين يومًا فقط. وإذا أضفنا إليها الأيّام الخمسة (البنجة)، يكون العدد المطلوب. وتقع أيّام البنجة بين شهر (شمبلتا)، أي السادس، وشهر (قينا)، أي السابع. أي عندما تنتهي الساعات الأخيرة من آخر يوم في شهر (شمبلتا)، ثمّ تبدأ أوّل أيّام البنجة. وعندما تنتهي الساعات الأخيرة من اليوم الخامس للبنجة يبدأ أوّل يوم من شهر (قينا). وتُعتبر هذه الأيّام مقدسة عند الصابئة إلى أبعد حدود التقدّيس. وحسب اعتقادهم لا تعدّ من أيّام السنة.

وأسماء الاشهر المندائيّة هي بحسب الترتيب التالي:

١ – أمبرا	٢ – تورا	٣ – صلمى
٤– سرطانا	٥ – أربا	٦ – شمبلتا

٧ – قينا	٨ – أرقوا	٩ – هطيا
١٠ – كديا	١١ – دولا	١٢ – نونا

أمّا أسماء أيّام الأسبوع باللّغة المندائيّة فهي:

الأحد :	هوشبا
الإثنين:	إترين هوشبا
الثلاثاء:	ثلاثا هوشبا
الأربعاء:	أربا هوشبا.
الخميس:	همشا هوشبا، أو هيول زيوا
الجمعة:	أورفتا
السبت:	شفتا

والأسبوع المندائي يبدأ بيوم الأحد.

جميع **أعياد الصابئة** لها صفة دينيّة، وتقام في مناسبات دينيّة مختلفة، وهي سبعة أعياد:

١ . العيد الكبير (دهفا رَبَا): ومدّته أربعة أيّام، تبتدئ باليوم السابع من شهر آب من كلّ سنة مندائيّة، وتنتهي باليوم العاشر منه، وهو الإسم الذي يُطلق على عيد رأس السنة، ويُطلق عليه أيضا (نوروز ربّا). وفي هذا اليوم تُذبح الفراخ والخراف. وفيه يخبز الخبز، ويحفظ داخل البيت، كما تُصنع الفطائر،

ويطهّر الثمر والخضار بعناية، وتُحفظ داخل البيت، لئلاّ تتلوّث؛ ويجلب الماء من النهر ويوضع في أواني، ليكفي ٣٦ ساعة.

ومن صباح ذلك اليوم إلى مسائه يقوم الكاهن بتعميد الراغبين، كما يجب أن تودع المواشي والدواجن قبل غروب الشمس لدى المجاورين من غير الصابئين؛ ذلك أنّه في الساعات الستّ والثلاثين المقبلة يجب على الصابئين أن لا يمسّوا المواشي، أو يحلبوها. وقبل أن تغرب الشمس بخمس دقائق تقريبًا، يغتسل أفرادُ الصابئة، رجالاً ونساء، كبارًا وصغارًا، بالارتماس بالنهر (طماشة) ثلاث مرّات. وتَطلق النساء الزغاريد. ويعود الجميع إلى بيوتهم، حيث يجب أن يمكثوا هناك، ولا يخرجون لأيٍّ غرضٍ. ففي هذه الساعات الستّ والثلاثين، أي من اللّيلة التي تسبق يوم رأس السنة، ويدعى يوم الاجتماع والتطيهر، وفيه تخرج الأرواح الحارسة من البيت ملبِّية دعوى الطبيعة.

وعلى الصابئي أن يظل ساهرًا طيلة هذه الساعات، وأن لا تغمض له عين. ولكن يسمح للأطفال بالنوم لتعذّر منعهم من ذلك. وفي يوم رأس السنة (يوم الحاجات)، لا تُجرى أيّ طقوس دينيّة. فإذا صادف أحدهم المنيّة، خلال هذه الساعات، يؤجّل دفنه، ويغسل بالماء المختزن في البيت، ويُلبس الملابس الدينيّة (رستة). وحين يلفظ آخر أنفاسه يغطّى بالخام الأبيض، ويُترك على حاله إلى فجر اليوم الثاني من السنة الجديدة، حيث يمكن

دفنه حسب المراسم المعتادة. تعدّ الوفاة في مثل هذه الظروف كارثة بالنسبة لروح الميت. ولذلك تُقام من أجله في أيام البنجة (زدقا بريخا) و (مسختة)[١]. وإذا عضّ أحدهم كلب، أو لسعته نحلةٌ، أو أفعى، فيجب أن يتناول ستّين عمادًا[٢].

ويعتقد الصابئون أنّ ربّ العظمة (مانا ربّا) قد أتمّ خلق هذا العالم في هذا اليوم. ولذلك جميع الأرواح النورانيّة والملائكة تغادر أماكنها، وتذهب لزيارة ربّ العظمة، وتقدّم له الشكر. ويستغرق عروجهم ٢١ ساعة، ويمكثون في عالم الأنوار ١٢ ساعة. ثمّ يعودون إلى هذا العالم بـ ٣١ ساعة[٣]. ولهذا يحتفظ الصابئة من الماء لهذه المدّة، لأنّ مياه الأنهار والجداول والسواقي تكون بلا حراسة من الملائكة فتتلوّث.

ولهذا أيضًا نراهم يعتكفون في بيوتهم طيلة الساعات الستّ والثلاثين. ولا تغمض لهم عين، خشية أن تقع أيُّ نجاسة تَفسد عليهم طهارتهم وبهجتَهم بهذا العيد. ذلك أنّ قوى الشرّ والموت تكون طليقة غير مكبوحة الجماح بسبب غياب الملائكة. وحتى الاشجار تصبح مضرّة. ويغلّفها الناس بالحُصُر لئلاّ يلمسها الأطفال من غير قصد.

---

(١) مسختة، اي طلب الغفران لروح الميت.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص ١٤٥-١٤٦.

(٣) أي عروجهم يستمر ٣٦ ساعة.

وفي اليوم الثاني من السنة الجديدة، يخرج جميع الصابئون من بيوتهم، فيتزاورون، ويتعايدون، وتكون أوّل زيارتهم لـ (الكنزفرة) حيث يخبرهم عن طالع السنة الجديدة. وتعلّق على أبواب البيوت أكاليل من الصفصاف ليلة القدر(٤).

وتستمرّ بقيّة الأيّام الثلاثة للعيد، عدا أيّام (الكرصة، وكنشي وزهلي)، بتناول الأطعمة المنوّعة، كالفواكه واللّوز والجوز والفستق والبندق، وكل ما لذّ للمحتفلين.

وبهذا يكون مجموع أيّام العيد خمسة أيّام. أمّا اليوم السادس والسابع، فيسمّى (عيد شيشلام). والتسميّة الكاملة بالمندائيّة: «دهفه أدْ شيشلام ربّا». واللّيلة بين هذين اليومَين تسمَّى ليلة القدر؛ وفيها يفتح (أباثر)(٥) أبوابه لطالبي الرحمة والغفران منه، فيزوّدهم بصكوك نورانيّة تحميهم من الأرواح الشرّيرة(٦).

٢ . **عيد شيشيان** : يقع في اليوم السادس لشهر دولا (تشرين الثاني) بعد خمسة أيّام من العيد الكبير. ومن المميزات البارزة لهذا العيد، أنّه يأخذ المندائيون غصنًا من شجرة الغَرَب

---

(٤) وتكون ليلة القدر بين يومَي عيد شيشلام.

(٥) أباثر، هو ملاك طاهر، يزن أعمال الناس الصالحة والشريرة.

(٦) مجلة التراث الشعبي، العدد الأوّل، ص ٤٢، السنة السادسة.

النهري (الحـور النهري)[٧]، حيث يقـرأ عليه علمـاء الدين بعض الآيات ليباركوه، وتوضـع هذه الأغصان على أبواب البيوت[٨].

٣ . **عيد القُل** : يقع في اليوم الأوّل من شهر تورا (تشرين الأوّل). في مثل هذا اليوم أُرسل المَلَكُ هيول زيوا، المَلَكُ المقرّبُ من العـرش الإلهي، وأعطيتْ له المهـمّة لخلق الأرض، وجـعلِها قـابلةً للسكن. وقد وصل في مثل هذا اليوم المَلَك هيول زيوا إلى الأرض وخلق الخضروات والأشجـار. ومن بين أوّل الأشجار التي خُلقت كانت شجرة النّخيل[٩]. وقد أُمر المَلَكُ هيول زيوا لكي يأكل منها. والمتـاع الذي اختـاره هيول زيوا للعـودة إلى تلك الدنيا كـان من شجرة النخيل. لذلك فإنّ الصـابئة ينظرون إلى هذه الشجرة نظرةً مقدَّسة.

يحتـفل الصابئة بهذا اليـوم، فيهـيّئون قبل يوم من العـيد كمـيّةً من التـمر. وبعـد عزل نواتهـا أو بذورها، يضيـفون إليـها السمسم وبعض الحبوب المعطّرة. ثـمّ يحمّرونها على النار. وبعد سحق الحـبوب المعطّرة في الهاون، يضيـفونها إلى التمـر عندما يذوب على النار جـيّـدًا، ويمزوجـونه مع الموادّ المضـافة جـيّـدًا،

---

(٧) يصنع المندائيّون من هذا الغصن حلقة تسمى بالاكليليّة.

(٨) سليم برنجي، المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

(٩) تسمّى شجرة النخيل بالمندائيّة بالسندركا.

ويصنعون من الخليط أشياء تشبه الضفيرة، تسمى بالفُل. وقد أخذ عيد الفُل من هذا الإسم، أي خليط التمر.

وفي هذا اليوم كلُّ ربّة بيت تصنع بعدد أفراد اسرتها والاقارب فُلّةً لكلٍّ واحد منهم، وتخبّؤها. وفي الوقت المناسب، عندما يجتمع الأحباب حوال بعضهم، يأكلون منها، ويفروحون.

وفي هذا الشقّ من السنة نرى بيوت الصابئة تعبق بالرائحة الزكيّة للسمسم المحمّر والحبوب النباتيّة المعطّرة التي تُسحق بالهاون(١٠).

٤ . **ألعيد الصغير (دهوحونينا)** : يقع العيد الصغير في الثامن عشر من شهر تورا (تشرين الأوّل)، وهو امتداد لعيد الفلّ. ولهذا يسمى بالعيد الصغير حيث فيه يرجع الملَك هيول زيوا إلى مكانه في عالَم الأنوار، بعد انتهاء مهمّته بالتوفيق والنجاح. ولذلك يقيمون الأفراح. ومن أهمّ عادات هذا العيد، هو وجود اللّبَن الرائب والرزّ حيث يؤلفان غذاءً كاملاً، وخاصّة للفقراء. ويزور الناس بعضهم بعضًا طوال النهار(١١).

---

(١٠) سليم برنجي، المصدر نفسه، ص ٢١٠.

(١١) سليم برنجي، المصدر نفسه، ص ٢١٠.

٥ . **عيد البنجة (دهوه بروانايا)** : يقع هذا العيد في خمسة أيّام، وهي من أسعد أيّام السنة على الإطلاق، وفيها يقام أكبر عيد عمادي نهري، ويصادف في وقت ارتفاع منسوب مياه النهر، ويكون غالبًا في العشرة الأولى من شهر نيسان، أو أواخر آذار، خلال أيّام الربيع الأولى. ويكرّس كل يوم من الأيام الخمسة لروحٍ نوراني، حيث تنفتح أبواب عالم الأنوار في البنجة ليلاً ونهارًا. لهذا تقام الصلوات في اللّيل[١٢]. وإحدى ليالي البنجة هي ليلة خاصّة بالغفران، تستجاب فيها كلّ الدعوات الصادقة، التي يناجَى بها ربّ عالم الأنوار.

والبنجة عيد ديني أكثر منه عيدًا للراحة والفرح والبهجة. ففيه يأتي الصابئون من أماكن بعيدة إلى موطن كهّانهم للتعميد، ويشاركون في الفاتحة (لوفاني)، والصدَقة المباركة (زدقة بريخه)، وفي الذكرى (دخرانه) من أجل الموتى. ويعتقد الصابئة أنّ الحواجز مرفوعة بينهم وبين موتاهم من الأقربين والأرواح النورانيّة التي أنجبتهم منذ عهد قديم خلال أيّام البنجة. ويرتدي الصابئة الملابس البيضاء خلال العيد، ويأكلون لحم الخراف. وقبل انتهاء البنجة، يجب تكريس (المندا) بتضحية كبش وحمامة.

---

(١٢) لا يمكن إقامة صلوات عند غروب الشمس في سائر أيام السنة.

٦ . **عيد يوحنا المعمدان** : يطلق عليه بالمندائيّة (دموا أدْمانا)، أو (دهفه ديمانه)، أو (دهو اديمانه). وهو عيد الاحتفال بميلاد يوحنا المعمدان[١٣]. يقع في أوّل شهر (هطيا)، أي أيار؛ ويَحتفل الناس، فيُقيمون الأفراح، ويجتمعون حيث يعمّد في هذا اليوم المبارك الأطفال اكثر من غيرهم، كما أنّ تسمية الأطفال الدينيّة في هذا اليوم أكثر تيمّنًا من الأيّام الأخرى.

وفي هذا اليوم تارة يعمّد الناس أنفسهم، وتارة يعمّدون أطفالهم، ويذهبون سويّة إلى الحفلات التي تقام في بيوت كبار رجال الدين، أو في المندا (المعبد). وفيه يتناولون الحلويات والشراب حيث توجد في كلّ بيتٍ لتقدّم للأطفال. ومن الجدير بالذكر هنا أنّه في هذا العيد، يُرفع عند التعميد (الدرفش)، أي الراية أو العلَم، وهو العلامة والشعار البارز للطائفة الصابئيّة. ويرفع بموجب مراسم خاصّة[١٤].

٧ . **العاشوريّة** : وهي مناسبة حزينة، يحتفل بها الصابئة بإقامة الفاتحة (لوفاني) لضحايا طوفان نوح[١٥]. وهو يقام

---

(١٣) قد يصادف في الأوّل من حزيران (قام صلمى)؛ رَ: حماده، ص ١٧٢.

(١٤) راجع محمد عمر حماده، تاريخ الصابئة، ص ١٧٢.

(١٥) يذكر محمد عمر حماده،ص ١٧٢: «هي مناسبة لإقامة الفاتحة على أرواح المصريّين الذين غرقوا في البحر الأحمر، حينما كانوا يلاحقون

لذكرى هذه الواقعة. والعاشوريّة هي نوع من غذاء الثواب يتكوّن من الحبوب فقط، ويقام لذكرى تلك الحادثة.

فبعد أحد عشر شهرًا من الضياع على سطح مياه البحر، وهدوء الطوفان، ونزول نوح ومرافقيه من السفينة. وبعد أن شكروا اللّه، كان أوّل عمل قاموا به هو أداء مراسم اللوفاني (غذاء الثواب). وكان متعارفًا عليه قبل عهد نوح. ولا يزال يُعمل به بين الصابئة، حيث يقيمون هذه المراسم بغية طلب الرحمة من اللّه لأرواح الموتى ومذنبي حادثة الطوفان، لربما يشفع اللّه لأولئك الذين غرقوا في الماء. وقد أقام نوح ومرافقوه غذاء الثواب هذا من الحبوب، لأنّه لم يبقَ شيء سالمًا غير الحبوب. ولهذا يجمع المندائيّون كمّيّات من الحبوب، ويصنعون منها نوعًا من الأكل يشبه الهريسة (القمحيّة)، ويوزّعونه بينهم، ويعطونه للفقراء.

موسى. وتقع هذه الذكرى في أوّل يوم من شهر (سرطانا) الذي هو تمّوز. ويعتقد الصابئة بأنّ المصريين كانوا على دينهم، وبأنّ جنس أسلافهم الصابئين الأوائل قد انحدروا من مصر إلى جبل ماداي.

ألفصل الرابع عشر

ألحياة الدينيّة

أولاً – مراتب رجال الدين

ألكهانة قد تكون وراثيّة عند الصابئة، فتوجد عائلات فيها الأب والإبن كاهنين ولعدّة قرون متواصلة[1]. يصبح الصابئي كاهنًا إذا كان منحدرًا من عائلة صابئيّة الأب والأم، ولبضعه أجيال، وبطهارة معينة، ويمتلك الصفات الدينيّة والعقليّة التي تؤهّله للوصول إلى الكهانة. والصابئة يحترمون رجال الدين ويقدرونهم. وكلمة رجال الدين نافذة في شؤون أبناء العقيدة. فالزواج والولادة، والتسمية، والتعميد، والصلاة، والذبح، والجنازة، أمورٌ لا تتمّ إلاّ بواسطة رجال الدين. ويقوم الصابئة بتقديم الهدايا لعلماء الدين ليستطيعوا العيش عيشة كريمة.

---

(١) راجع التفاصيل لدى محمد عمر حماده، المصدر نفسه، ص ٧٣-٧٨.

١ . التنشئة الكهنوتيّة

يبدأ التدريب الديني للصابئي من الصِّغَر، حيث يلبس (الرستة)، أي الملابس الدينيّة. ويقوم بوظيفة القندلفت (أشكنده) لأبيه. ويبدأ بتعلّم الأبجديّة منذ الثالثة، أو الرابعة، من عمره. وحين يتعلّم القراءة والكتابة، يسمّى (يلوفا)، أي المُتعلِّم والمثقّف دينيا.

وحينما يصبح قادرًا على النطق، يبدأ يحفظ الأدعية والصلوات. وعند سنّ البلوغ يمتنع عن قصٍّ شعره. ويشترط فيه أن يكون تامَّ الأعضاء البدنيّة، وغير مريض. ويُعَدُّ المختتن ناقصَ الجسم -عِلماً أنّ الختان محرّم في العقيدة الصابئيّة-. كما أنّ العقيم، أو الخصيّ، غير مؤهّل للكهانة. وإذا تعرّض لخلل عقلي، يُمنَع من ممارسة أعماله الدينيّة.

وليس بدن الكاهن فقط ما يجب أن يكون سليمًا، بل سلالته أيضًا؛ إذ عليه أن يكون منحدرًا من دمٍ صابئيٍّ نقي، وأن تكون أسرتُه طاهرة، جسميًا وطقسيًا لعدّة أجيال، ومن جهتَي الأم والأب. وتاريخ الأسر معروف لدى الكهّان، وبخاصة أُسَر الكهّان الذين يحتفظون بالأنساب الطويلة المدوّنة عادةً في حواشي الكتب المقدّسة. فلا يسمح للفرد أن يصبح كاهنًا إذا كانت إحدى جدّاته خلال فترة ثلاثة أجيال قد تزوّجتْ وهي

أرملة، أو لم تكن عـذراء. ومن هنا يمكن أن يقال إنّ كلَّ كـاهنٍ قد ولدته إمرأة عذارء.

وقد تصبح المرأة كاهنة من الـدرجة العليا (كنزفره) -ولو أنَّ هذا قليل-. ويوجد في كتاب (الكنزه) ذكرٌ لكاهناتٍ صابئيّات. ومع ذلك فديوان (الفترس شياله) يحذّر من تدشين امرأة ككاهن، حيث يقول: «إحذروا أن تكرّسوا امرأة كاهنًا».

٢ . درجات رجال الدين

١ - **الحلالي** : هو الشمّـاس، وهو مَن اقتصرتْ دراسـته على بعض الكتب الدينيّـة الأوّليّة، وتعمّـد التعـميد الخـاصّ بهذه الدرجة. ثمَّ نذر نفسَه للسير في الجنازة، وفي إقامة سنن الذباحة للعامّة. ولا يتزوّج إلاّ بكرًا. فإذا تزوّج ثيِّـباً سَقطت مرتبته، ومُنع من وظيفته، إلاّ إذا تعمّد هو وزوجته ٣٦٠ مرّة في الماء الجاري.

٢ - **الترميدا** :يجب على المرشّح لهذه الدرجة أن يحفظ ما يكفـيـه من الطقوس والـصلوات، ويكون قـد اعتـاد على العـمل كـقندلفت، ودرس الكتب المـقدّسـة، بإشـرافِ كـاهنٍ أو أسـتـاذ (كنزفـره)، حـتى يصـبح مـؤهّلاً لأولى درجـات الكهـانة، وهي (الترميدا). ويسمّى المرشح لـهذه الدرجة (الاشوليا). ويكون هذا بعد البلوغ، حـيث يتمّ تكريسه بمراسم خـاصة لا مجـال لذكرها هنا.

٣ - **الكنزفرا** : ينتقل الترميدة إلى درجة (الكنزفرا)، ويشترط في ذلك أن يكون فاضلاً قديرًا في أمور الدِّين، مطّلعًا على التفاسير الدينيّة، وحافظًا لكتاب (الكنزا)، وإن يكون متزوِّجًا وغيرَ عقيم. ويقوم الكنزفرا باستخراج دهن السمسم في مندي الطين. ويقرأ عليها القراءات الدينيّة بهذا الطقس. ويضع الدهن في قنينة صغيرة، ويختمها بخاتمه. ويضع هذه القنينة في جيب خاص في ملابس شخص محتضر. وهذه القنينة بمثابة رسالة ترسل إلى (أباثر)، الملاكِ الموكلِ على الميزان إيذاناً بارتقاء أحد الترميدا إلى كنزفرا. وبعد ثلاثة أيام يقوم الكنزفرا الجديد بعمل (المسقثا) إلى الشخص المتوفّي. وبعد خمسة وأربعين يومًا يقوم بزواج رجل دين بدرجة ترميدا. وبذلك أصبح كنزفرا له الحقّ بممارسة جميع الطقوس الدينيّة الكبرى[٢].

٤ - **ريش أمثا** : أي رئيس الأمّة، وصاحب الكلمة النافذة. ويشترط في الكنزفرا الذي يريد الإرتقاء إلى درجة (ريش أمثا) أن يكون عالمًا، وذا أهليّة وكفاءة ممتازتَين، وقادرًا إلى محاكمة الأمور بشكل مشهود من العلماء. «لا يوجد بين صابئة اليوم مَن بلغ هذه الدرجة، لأنّها تحتاج إلى علم وفير وقدرة فائقة»[٣].

---

(٢) محمد عمر حمادة المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٣) موسوعة العقائد، ص ٣١٩.

٥ - **الربّاني** : وهي أعلى مراتب الإجتهاد، ولم ينل هذه المرتبة من السابقين غير النبي يوحنا المعمدان بن زكريا[٤]. ولا يجوز أن يوجد شخصان من هذه الدرجة في وقتٍ واحد. والرباني يرتفع ليسكن في عالم الأنوار، وينزل ليبلّغ الطائفة تعاليم الدين، ثمّ يرتفع مرّةً أخرى إلى عالمه الربّاني النّوراني[٥]. ويقول الصابئة إنّ يوحنا لم يكن رسولاً بل نبيًا خاصًا بهم[٦].

ثانيًا - الكتب المقدسة

لم تطبع الكتب المقدسة المندائيّة، بل قام الكهّان بنسخها باليد. ويعقتد الصابئون بأنّ امتلاكهم لهذه الكتب يحميهم من الشرور في الدنيا والآخرة. تُكتب هذه الكتب باللغة المندائيّة. وقليل من عامّة الصابئة يستطيع قراءة هذه اللغة، أو كتابتها. فتعلّمها محصور برجال الدين. ويمتنع الكهان من تعليم اللغة المندائيّة لأبناء الشعب، حتّى تبقى كتابة هذه اللغة وقراءتها حكرًا عليهم[٧].

---

(٤) مجلة العربي، العدد ١١٢ (١٩٦٨)، ص ١٥١.

(٥) موسوعة العقائد، ص ٣١٩.

(٦) الصابئون، ص ١٠٣.

(٧) يعتقد الصابئة بأنّهم توارثوا كتبهم المقدسة بصورها الحاليّة عن آدم،

وتغلَّف الكتب المقدّسة تغليفًا تامًا بالخام الأبيض، وتُربط بأشرطة من الخام أيضًا، ويصنع الكهان الحبرَ بأنفسهم. وينبغي أن يكون أسودَ لمّاعًا. وهو يُحفظ على شكل بلورات تذاب بالماء حين استعمالها.

أهمُّ الكتب المندائيّة المقدّسة :

١ - كتاب كَنْزَا رَبًّا (الكنز الكبير) : ويسمَّى أيضًا الكنز العظيم، وأيضًا (سِدْرَا رَبًّا)، أي الكتاب العظيم، أو كتاب آدم. يحتوي هذا الكتاب على فقرات كثيرة، تتحدّث عن نظام تكوين العالم وحساب الخليقة، وأدعية، وحكايات. والقسم الثاني من الكتاب (قسم الشمال) يعالج شؤون الميّت[8]. وتختلف الصابئة في زمن كتابته، فمنهم مَن يرجع ذلك إلى ما قبل الميلاد، ومنهم مَن يذهب إلى أنّه من عهد يوحنا المعمدان.

ومنه انحدرت إلى نوح، وبعدالطوفان إلى سام، ثمّ إلى ولده رام، حتّى وصلت إلى يوحنا المعمدان.

(٨) في خزانة المتحف العراقي نسخة كاملة من الطبعة الأولى، برقم مطبوعات (٤٧٦٢/٤٧٦٦)، وهي نادرة جدًا. وتضم الخزانة أيضًا نسختين من هذا الكتاب برقم (٢٥٣)، وهي ١٦٨+٤٤٢ صفحة، بقطع (٣١×٢١) سم. ورقم الثانية (١٤٤٠)، وهي (٤٩١+١٨٢) صفحة، بقطع (٣١×٢١)سم. وكلُّ صفحة تحوي عشرين سطرًا.

ومن مميّزات هذا الكتاب أنّه يتألّف من قسمَين: يميني وشمالي. فإذا أمسكه أحدهم من القسم اليميني، كان قسمه الشمالي مقلوبًا، أي يكون أعلاه أسفله؛ وإذا أمسكه من القسم الشمالي، كان قسمُ اليمني مقلوبًا، فيسطيع شخصان جالسان على ضفّتَي الساقية الواحدة أن يقرأ فيه في وقت واحد(٩).

٢ - **دْرَاشَا دْيُوحَنَّا (دروس يوحنا)** : يتضمّن حياة يوحنا المعمدان من بدء ولادته العجيبة وتربيته في الجنّة؛ ثمّ نزوله إلى الأرض ليبلّغ رسالته، إلى تاريخ وفاته، وصعوده إلى السماء. كما يتضمّن تعاليمه الدينيّة وإرشاداته. ويقولون إنّ الملاك جبرائيل أوصى يوحنا أن يضع الكتاب ويسمّيه بهذا الإسم(١٠).

٣ - **سِدْرَا دْنِشْمَاتَا (طقس التعميد)** : تعتقد الصابئة بأنّ هذا الكتاب نزل على آدم أبي البشر، وأنّه أساس الديانة الصابئيّة. وهو يبحث ما يجب اتّباعه في الجنّاز، وتلقين الأموات، وكيفيّة

---

(٩) ترجم هذا الكتاب منذ عام ١٨١٢، وقام بترجمته ماتيو نوربيرغ السويدي، بحروف سريانيّة، مع ترجمة لاتينيّة، في أربع مجلدات في كوبنهاكن. وظهرت له ترجمات أخرى، كان أفضلها ترجمة البروفسور ليدز بارسكي إلى الإلمانيّة، وطبع عام ١٩٢٥. وبلغنا أنّ الدكتور يوسف قوزي ترجمه إلى العربيّة، وطبع في بغداد عام ٢٠٠٠.

(١٠) محمد عمر حماده، المصدر نفسه، ص ٦٤.

دفنهم، وأسباب تحريم البكاء، أو الحداد. ويشرح كيفيّة انطلاق الروح من الجسد حتّى وصولها إلى عالم الأنوار[١١].

٤ – **كِتاب القَلِسْتَا (كتاب الزواج)** : يختص بالزوّاج وسننه، والاحتفالات التي تُقام في أثناء العقد، والأناشيد التي تتلى فيه، وكيفيّة تحليل النكاح الشرعي، وإجراء الخطبة.

٥ – **سِفْر مَلْوَاشَا (كتاب البروج)** : يُقرأ لأغراض التنجيم والفلك. يستعين به شيوخُ الصابئة لمعرفة حوادث السنة المقبلة، ولمعرفة البرج الذي ولد الشخص فيه، فيستنبطون منه اسمه المقدّس الذي يبقى محفوظًا لديهم[١٢].

٦ – **تفسير بَغْرَا (كتاب الجسد)** : يعالج المعنى الداخلي للواجبات الطقسيّة، كما يبحث في علم تشريح جسم الإنسان.

---

(١١) قد نقل المستشرق (ليدزبارسكي) القسم المختصّ بطقوس التعميد إلى الإلمانيّة، سنة ١٩٣٠، ونشر الكتاب بتصه المندائي في المجلد الخامس من مجموعة Mission scientifique en Perse, J.E. Morgan. ويوجد نسخة حديثة منه في خزانة المتحف العراقي باللغة المندائيّة. نُسخت للأب أنستاس الكرملي سنة ١٨٩٤ على ورق معشر، وعدد صفحاتها (٢٨٤) صفحة ورقمها (مخطوطات ١٨٩٦).

(١٢) نشرت الليدي دروار هذا الكتاب بنصّه المندائي سنة ١٩٤٩، فجاء في (٢٨٩) صفحة. كما نشرت فيه ترجمة بالإنكليزيّة.

٧ - كتاب الدِّيوَان : كتاب ضخم يعدّ من أنفس كتب الصابئة. فيه قصص بعض الروحانيّين مع صورهم. وهو قليل الوجود.

٨ - ترسسر ألف شيالا (إثنا عشر ألف سؤال)[١٣] : يتألف من سبعة أجزاء. يتناول الجزء الأوّل الأخطاء في الطقوس وطريقة غفرانها وإيضاح الشعائر[١٤] .

٩ - كتاب إنْيَانِي يتحدّث هذا الكتاب عن الطهارة الصغرى (الوضوء) -ألرشامة-، وعن بعض الأدعية للـ (مسخثة)، أي الغفران.

١٠ - ديوان طْرَاسَا (طقوس التطهر) : يبحث في أنواع التكريس: كتكريس الكاهن، وتكريس المندى، وتكريس الإستاذ (كنزافرا)[١٥].

---

(١٣) ذكرته دراور باسم (الف ترسسر شيالا)، وصحّحه مترجما الكتاب الأستاذان الصابئيّان نعيم بدوي وغضبان الرومي، وجعلاه «ترسسر ألف شيالا»، أي إثنا عشر ألف سؤال.

(١٤) راجع الصابئة المندائيّون الذي يذكر فيه أنّه يتألّف من خمسة أجزاء. والصحيح أنّه سبعة أجزاء، إعتمادًا على ما جاء في كتاب السيد حماده «تاريخ الصابئة المندائيون»، ص ٦٧.

(١٥) يوجد نسخة منه في المتحف العراقي برقم (مخطوطات ٢٠٨٧).

١١ - دواوين قَمَـاهِي وزرستي (ألرّقى والتـعاويذ)[١٦]:
هي من الدواوين الطلسـميّـة. والحرز الطلسـمي نوعان: ألكبـير الذي لا يمكن للإنسان أن يـحمله، ويدعى (قمـاها)؛ أمّا الصغـير (زرستا) فهو الحرز المعتـاد. وهو ثابت لا يتغيّر، ويكتب للتوّ على قصاصـة طويلة من الورق، عرضها من عـقدتين إلى ثلاث (٦-٩ سم). تلفّ بإحكام، وتوضـع في صندوق صغـيـر من الذهب أو الفضة، بحيث يمكن تعليـقها في عنق الإنسان بواسطة سلسلة أو خيط. وهذا الـنوع من الإحراز طويل عـادة حتّى ليبلـغ السبع أو الثماني أقدام طولاً. ولهذا يُستعمل له ورق رقيق جدًا[١٧].

١٢ - قُمَاهَا أو هِيبَل زِيْوَا (عودة دهبل زيوا) : وهو عبارة عن درج فيه أكثر من ألف ومـئتَي سطر. وتمثّل تعزيمات يحملها متـديّنو الصابئة، ويعـتقدون بأنّ من يلبـسها لا يتـأثّر بالسلاح الناري. وفي آخر الدرج الأصلي الذي ينسخ عليـه والمحفوظ عند الكاهن مـا تعريبـه: «تحفّظ ثمّ تحـفّظ، ثمّ أقول لك تحـفّظ من أن تكتب القماها لكلٍّ مَن كان أو لكلٍّ أحد»[١٨].

---

(١٦) قـماهي (قـمـا، باللغـة المندائيّة، تعـني فقط) و (زرسـتي) تعني يقـرّ ويصـون.
(١٧) ألصابئة المندائيّون، ص ٧٢.
(١٨) الصابئون، ص ٩٠.

ثالثًا – الملابس الدينيّة

للصابئة عمومًا ملابس دينيّة خاصّة بالمناسبات الطقسيّة الروحيّة، يرتدونها إلزاميًا في كلّ الاحتفالات. وتسمّى **الرّستة**، وهي كناية عن رداء أبيض، يرمز إلى كساء النور، الذي ترتديه الروح الطاهرة. تتألّف الرستة التي يلبسها العامّة من خمس قطع. أمّا الكاهن فمن سبع قطع وهي :

١) **القميص** (كسويَا أو سدره) من القطن الأبيض، وفيه الدَشّه (أو دَشَا)، وهي عبارة عن قطعة من قماش القميص نفسه، تُخاط من الخارج أعلى الناحية اليمنى من فتحة الصدر.

٢) **الشروال** (السروال)، ومنه التكّه، وهي الخيط الذي يشدّ السروال إلى البطن.

٣) **برزنيقا** (العمامة)، وتتألّف من قطعة من الموسلين (الحرير) الأبيض، وتُلفّ ثلاث لفّات حول الرأس. وتُترك إحدى النهايتين مدلاّة فوق الكتف الأيسر. وتسمّى هذه النهاية (رغزه). وحينما تلفّ حول الحنك وتغطي الأنف، ثمّ ترفع إلى أعلى الرأس في الجهة اليمنى من العمامة، تسمّى (بندامة).

٤) **النصيفة** (القبوعة)، وهي قطعة من الخام تُلقى على الكتفَين.

٥) **الهميانا** (الزنّار)، تنسج من ستّين خيطًا صوفًا، وتُلفّ حول الخاصرتَين.

٦) **التـاغا** (التاج)، حـلقة مجـوّفة من الحـرير الأبيض أو القطن. لا يستعملها إلاّ الكاهن.

٧) **المركنه** (العصـا)، وهي من الزيتون. يسـتعملها الكاهن فقط.

٨) **شوم ياور** (حلقـة من الذهب)، تُلبس في خنصر الـيد اليمنى، مكتوب عليها: «شوم ياور زيوا». يسـتعملها الكهّان فقط، ولا يجوز نزعها أبدًا[١٩].

رابعًا – المندا (المعبد)

المندا هو المكان الذي يتـعبّـد فيـه الصـابئـة. وهناك قـواعد خاصة ومحددة يجب تحقيقها عند بنائه من ناحية الشكل، والموادّ المستعملة في البناء. يأخذ المندا شكل جمَالون، ويُبنى من القصب والطين. يجب اتّصاله بقناة من ماء جارٍ للتطهير. فالموادّ وتركيبها ونسبها وشكل المندا موصوفةٌ كتابةً، وشفاهةً عند الصابئة.

---

(١٩) محمد عمر حماده، المرجع نفسه، ص ٨٣.

في المندا توضع الكتب المقدّسة. وفيه يُجرى تعميد رجال الدِّين. يقام المندا عادة على الضفاف اليمنى من الأنهر الجارية، وله باب واحد يواجه اتّجاه الجنوب. فإذا دخل الصابئي إليه، فإنّه يستقبل الشمال حيث النجم القطبي، ولا يسمح للنساء بدخول المندا. يقول الصابئة:

«كان المندا قبل يوحنا يشبه بيتاً من بلّور، ولكن حين طُرد الصابئون من القدس، كان عليهم أن يتّخذوا له شكلاً من أشكال البناء، مما يمكن إقامته بسهولة»[٢٠].

وفي أوقات احتفالات الإرتماس (التعميد أو الغطاس)، يرفع (درفشته)، أي العلم الحريري (علم يوحنا المعمدان)، على ضفّة البركة إلى الجنوب الشرقي من الجهة اليمنى من المندا. ويوجد داخل المندا علاقتان (شكاصة) لتعليق الملابس الدينيّة.

خامسًا - اللّغة الدينيّة المندائيّة

أللغة الصابئيّة المندائيّة هي إحدى اللهجات الأراميّة، واسمها مشتق من الكلمة الآراميّة (مَدْعَا)، أي المعرفة. واللهجة

---

(٢٠) الصابئة المندائيّون، ص ٨١.

المندائيّـة هي أنقى اللهجـات الآراميّـة، لعدم اختـلاطها بعـناصر أجنبيّة. وهي تمثل اللغة الآراميّة السليمة.

جاء في كتاب تاريخ الأدب السرياني: «ونستطيع بعد ذلك أن نقسم الـلهجات الآرامـيّة إلى شـرقيّة وغـربيّة. أمّـا الشيـعة الشرقـيّة فتـضم لهجـة (الرَّها) الأراميّة، وكـان موطنهـا ما بين النهرَين، وسـمِّيتْ، بعـد ظهور المسيـحيّة، بالسـريانيّة؛ ولهـجة آراميّة يهوديّـة بابليّة هي لهجة (التلمود البابلي)، وكـان موطنها شمالي العراق؛ ولهجة الصابئـين الآراميّة، وهي اللهجة (المنداعيّة أو المندائيّة)، وموطـنها جنوب العراق، ومعناها المعـرفة، ويسمّى أصـحابهـا بالصابئين أو المنداعـيّين (المندائيين)، وهم طائفـة من القبائل الآراميّة، كـانت تسكن منطقة الأردنّ، ثمّ هاجرت منها إلى العراق»[٢١].

والحقـيقـة هي أنّ «اللغـة الصابئـيّة والمندائيّـة هي لهجـة آراميّة بابليّة»[٢٢]. وخلافًا للغات الآراميّـة، واليهوديّة، والبابليّة، التي تسرّبت إليهـا بعض الكلمات العبريّة، وامتـزجتْ بها، وحتّى خلافًا للغة السريانيّة التي تأثـرت بالكلمات والعبارات اليونانيّة،

---

(٢١) د. مراد كامل، ود. مـحمد حمـدي البكري، تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي، عن المقتطف، ج ١، مجلد ١١٥، (١٩٤٩).
(٢٢) د. رودولف ماتسوخ، ثقافة أرض إيران، مجلد ٨، ص ٢٥.

بقيت اللغة الأدبيّة الصابئيّة بعيدةً عن التأثر باللغات الأجنبيّة[٢٣].

وقد اشتقّ الخط المندائي بصورة مباشرة من الخط الآرامي، وهو أسهل الخطوط الساميّة وأكملها، لأنّه، خلافًا لسائر الخطوط الساميّة، لا تكتب فيها الحروف الصوتيّة. إضافة إلى ذلك فالخط المندائي تكتب فيه الحروف الصوتيّة أيضًا، من هنا فهو خط متكامل حي[٢٤].

سادساً - الألفباء المندائيّة

يطلق الصابئون على الألفباء اسم «آ.بَا.كَا». ولكلّ حرفٍ معنى خاص، ويمثل بالنسبة لهم قوّة من قوى الحياة والنور.

---

(٢٣) أمّا اللغات الآراميّة فهي عبارة عن: التدمري، السرياني القديم، السطرنجيلي، السرياني الغربي، السرياني الشرقي، السرياني الفلسطيني، المندائي والمنخي. وقد أثبت اللغويون -وبعد دراسات مستفيضة حول اللغات الآنفة الذكر- أنّها كلّها تشتقّ من أصل واحد، وقريبة جدًا بعضها من بعض، لأنّ الكثير من اللغات والكلمات والمفاهيم بين هذه اللغات سواء من حيث المعنى، وحتى أحيانًا من حيث اللفظ، تشبه بعضها إلى حدٍّ كبير، بل وتكاد تكون واحدة (راجع سليم برنجي، المرجع نفسه، ص ٨٥).

(٢٤) د. رودولف ماتسوخ، ما هم الصابئة، مجلة نورجهان، عدد ١٤، (١٣٢٩).

لذلك، فـإنّ للحـروف عندهم قدسـيّـة خاصّـة. وتُنقش حـروف الألفباء على قدر عددها من قطع الفضة، أو الذهب، وتوضع تحت وسادة الصـابئي الذي يرغب بالإرشاد السـماوي، حين تنزل به مصيبة، فيقـوم في كلّ ليلة بوضع حرفٍ واحد، حتى يرى منامًا له عـلاقة بمصيـبتـه، فيـعدّ الروحَ التي تخـفي ذلك الحـرف قد انكشفت له، وإنّها ستقوم بمساعدته، فيلبس ذلك الحرف كحجاب وتعويذة في عنقه، حتى يتم تخلّصه من تلك المصيبة والمحنة.

عدد الأحرف ٢٤ حرفًا، لكلّ حرف معنى. وهي كما يلي:

١. آ – ألكمال والنور والحياة، وبدء ونهاية كلّ شـيء.
٢. بَا – الأب الأعلى.
٣. جَا – (ج مصريّة) جبرائيل الرّسول.
٤. دَا – السبيل أو القانون.
٥. هَا – ألحياة العظمى.
٦. وَا – لمن لا يصغي للغة الحياة.
٧. زَا – الإشعاع والنور الفاعل.
٨. هَه – حرف مقدّس. لا يُستعمل كثيرًا، وهو يمثل عين اللّه.
٩. طَا – طيّب أو جسن.
١٠. يَا – أليوم.
١١. كَا – إكليل الآس.

١٢. لاَ – لسان يتحمد.

١٣. مَا – ألعقل العظيم الأوّل أو الروح.

١٤. نَا – نور.

١٥. سَا – أم جميع الحياة.

١٦. أي – (وهي ع) ألعين أو عين الماء.

١٧. بَا – (وهي ف) شجرة الحياة.

١٨. صَا – أنت الصوت الأوّل.

١٩. قَا – أنت قول الحياة الأوّل.

٢٠. رَا– ألرحيم. ألرحمة

٢١. شَا – ألشمس.

٢٢. تَا – ألتوبة.

٢٣. أو – أداة إضافيّة.

٢٤. آ – كالحرف الأول، وضع لجعل العدد فلكيًا، أي ٢٤ حرفًا.

ونلاحظ أن الحروف المندائيّة تفتقد إلى الحروف الحلقيّة، فالهاء تؤدّي وظيفة الهاء، والحاء، والعين. كما أنّ التمييز غير واضح بين السين والصاد والزاي، وبين الكاف والقاف. وأدخلت حروف تكميليّة في عصور متأخّرة لتساير التطور، وهي غير مستعملة في الكتب الدينيّة، وهي: غ، ، ع، ضا، أو ذا، جا، فا[٢٥].

(٢٥) التفاصيل لدى محمد عمر حماده، المرجع نفسه، ص ١٨٥–١٩٤.

سابعًا – المُحرّمات عند الصابئة

أوصى الدين الصابئي كثيرًا بالابتعاد عن الأعمال السيّئة. والأفعال الأساسيّة التي تعدّ من المحرّمات عندهم. وهي :

١ . **قتل النفس**: يعدّ قتل النفس عمدًا من أكبر وأسوأ الذنوب، ويُلام مرتكبو هذا العمل الشنيع إلى أبعد الحدود. وحتّى إنّه ورد في الكتب المندائيّة، أنّ كلّ من ارتكب قتل نفسٍ عمدًا فإنّ اسمه يمحى كلّيًا من الصابئة، ولا يعدّ واحدًا منهم بعد ذلك، وحتى أنّ الديانه المندائيّة حذّرت من قتل الكائنات الحيّة الأخرى، وإذا ذبح صابئيٌّ طيرًا، أو حيوانًا، حلّ الله ذبحه، فعليه أن يقرأ آيات الاستغفار.

٢ . **الزنا واللواط**: من الأعمال المحرّمة والشنيعة والبغيضة، أكّدت الديانة المندائيّة اجتنابها. ومرتكبو هذا العمل، وبسبب ترويج الفساد، يُطردون من المجتمع، ويُبعدون عن الاجتماع الصابئي، ولا يغفر لمرتكبي هذا الذنب أبداً.

٣ . **المسكرات ولعب القمار**: تحرّم الديانة المندائيّة شرب جميع أنواع الخمر والكحول، وتؤكّد على عدم شرب وأكل جميع الموادّ التي قد تؤدّي بنحو ما إلى السكر. وقد أكّدت الآيات صراحة على الابتعاد عنها. منها ما تعريبه: «كلّ مَن عاقر الخمر وشربَه وارتاد أماكن الفساد ووضع رجله في أماكن غير طاهرة،

فلن يكون نصيبه في تلك الدنيا غير جهنم، وستسكب في فمه النار الحامية»[٢٦].

٤ . **الكذب وحلف اليمين الكاذب**: أكّدت المندائيّة وحثّت أتباعها على عدم تلويث أنفسهم بأعمال مثل قول الكذب، والنميمة، والتزوير، والنفاق، والحلفان الباطل، وغيرها.

٥ . **الرّبا بجميع أنواعه**، محرّم في المندائيّة. وتؤكّد على معاقبة فاعليها بشدّة .وهذا ما شددت عليه الكتب المقدّسة في الآخِرة على المرابين، واكّدت على معاقبتهم في يوم القيامة أشدّ العقوبات.

٦ . **أكل لحم الخنزير**، لا بل جميع الحيوانات المفترسة، وحتّى البقر والجمل والفرس والكثير من الحيوانات الأخرى، تعدّ من المحرّمات في الديانة الصابئيّة[٢٧].

٧ . **الزواج من القريبات** : لا يجوز في المندائيّة الزواج من الأخت والأخ، والعمّة والخالة، والجدّة والخال، والعم والجد، وابن الأخ وبنت الأخ والأخوات والأخوة الأشقّاء وغير الأشقاء،

(٢٦) كتاب كَنزا ربّا.

(٢٧) ويمتنعون عن أكل لحم كلّ ذي ذنَب، وكل ما افترس من الطير والطيور آكلة السمك،. ويحرّم أكل الغراب والحصان والكلب، والأرنب الأهلي والوحشي، والفار والقط.

وأخوات الزوجة قبل وفاة الزوجة، وأخ الزوج حتّى بعد وفاته.

٨ . **السحر والشعوذه** : تنهي المندائيّة عنها وتعتبرها من الأعمال السيّئة والبغيضة. ويعاقب فاعلوها بأشدّ العقوبات. وقد اكّدت هذه الآية من كتاب «الكنزا ربّا» على ذلك: «إبتعدوا عن تعلّم السحر، وخداع الشيطان، ولا تشهدوا بالباطل».

٩ . **حلق الذقن**، يحرّم بالنسبة للرجال.

١٠ . **القتال**، إلاّ دفاعاً عن النفس.

١١ . **الختان**.

١٢ . **لبس السواد**. يحرّم على زوجة الميت، أو قصّ شعرها، أو البكاء والندب والعويل، ولطم الصدور، أو حثّ التراب على الرأس، لأنّ انطلاق الروح من الجسد هو تحرّرها من هذا القيد، وعودتها إلى عالم الأنوار.

١٣ . **الجنابة**، أي ألأكل والشرب والإشتغال قبل الإغتسال من الجنابة.

١٤ . **الزواج من أجنبي أو أجنبيّة**.

١٥ . **أن يبقى الإنسان أعزب من دون زواج**.

١٦ . **لبس اللون الأزرق**، لاعتقادهم أنّه لون حجاب الروهه (روح شريرة تجسّد المادّة والحياة والطبيعة).

١٧ . السرقة وقطع الطريق والسلب.

١٨ . النظر إلى المحصّنة بريبة أو بشهوة.

١٩ . شهادة الزور.

٢٠ . العمل أيّام الأحد والأعياد.

٢١ . الإمتناع عن سداد الدَّين، أو ردّ الأمانة.

٢٢ . حلق الذقن أو الشارب، أو الأخذ منهما. أمّا شعر الرأس فيسمح بقصّه ما عدا رجال الدِّين

٢٣ . إطّلاع غير الصابئين على الكتب الصابئية الدينيّة.

٢٤ . خروج الروح من الجسد قبل طهارته، فيجب أن يُطهّر الجسد بالماء حين يشعر المحيطون بالمريض بدنوٍّ أجضله.

٢٥ . لمس الميت، لأنّ الميت نجس، ومن لمس النجاسة أصبح نجسًا.

٢٦ . أكل الدم أو شربه[٢٨].

---

(٢٨) وهناك محرّمات أخرى كالغيبة والنميمة والفتنة والتفاخر والظلم والنهب والاعتداء على حرمة الآخرين وغيرها. راجع مجلة التراث الشعبي، العدد ١٢، السنة الخامسة، ص ١٠٨؛ وكتاب الصابئة المندائيّون، ص ١١٤.

الفصل الخامس عشر

عدد الصابئة وأماكن وجودهم

عاش الصابئون في العراق منذ آلاف السنين، وكانوا منتشرين أيّام الخلفاء الراشدين والعبّاسيّين في بلاد سورية وما بين النهرين والعراق وبلاد إيران وشرقي بلاد العرب وجنوبها. وهم الآن في طريقهم إلى تطوّر ديني لا بد أن يبعدهم كثيرًا عن طقوسهم وشعائرهم الأولى، تطوّر سوف يفرض عليهم الانتقال من حالٍ إلى حال، بسبب معايشة الطوائف الأخرى.

في القرن السابع عشر، حسب روايات بعض المؤرّخين، ما يقارب «مئة ألف نسمة». ويذكر الرحّالة الفرنسي تافارنييه أنّه حين مرّ بمدينة البصرة في آذار من عام ١٦٥٢م.، قيل له إنّ أتباع يوحنا المعمدان (الصابئين) في البصرة وأطرافها نحو ٢٥ ألف عائلة.

أمّا اليوم فقد حُصروا في العراق، حيث يتوزّعون في محافظة ميسان (العمارة)، وبغداد، ومحافظة ذي قار (الناصريّة)، ومحافظة القادسيّة (الديوانيّة)، وقلعة صالح، والقرنة، والعزير، والشرش، ونهر صالح، وسوق الشيوخ، والبصرة، والكوت، والحلّة، وديالى، وكركوك، والموصل.

ويوجد قسم آخر من الصابئين في جنوب إيران، وعددهم بضعة آلاف. ويعيشون حول نهرَي كارون والدن، في مدينة المحمّرة، وششتر، وديزفول، وناصريّة الأهواز، وبستان، وسوشكدو.

وانتشر الصابئون في هذا القرن، فاتّجهوا صوب المدن العراقيّة الكبرى، طلبًا للرزق، وللإقامة في أماكن وظائفهم، ونزح قسم منه إلى عواصم الدول المجاورة، كدمشق، وبيروت، والقاهرة، وإلى تركيا. كما سافر بعضهم إلى أوروبّا وأمريكا. وافتتحوا فيها محلاّت لصياغة الذهب والفضة المطعمة بالميناء.

بقي الإشارة إلى الاحصاءات الخاصة بتعداد نفوسهم بدءًا من الرحالة البرتغاليين في القرن السابع عشر وحتى العام ٢٠٠٠، إلى تذبذب كبير في عدد المندائيّين. ويعود ذلك إلى التقديرات غير الدقيقة من جهة، ومن جهة أخرى إلى حملات الاضطهاد والأوبئة التي أثّرت في عددهم تأثيراً خطيرًا.

فعدّوا العام ١٦٥٢ بـ (١٢٥,٠٠٠) نسمة، نقصوا العام ١٨٧٧ إلى أربعة آلاف نسمة. بينما ورد عددهم في النشرة الرسميّة العثمانيّة لعام (١٨٩٨-١٨٩٩) بالبصرة والعمارة والناصريّة فقط بـ (٣٠٠٠) نسمة[١]. وعددهم بالعراق سنة ١٩٢٧ (١٠,٠٠٠) نسمة. وذكرهم الدليل العراقي الرسمي للعام ١٩٣٦ بحوالي أربعين ألف نسمة.

وذكرهم عبد الرزاق الحسني في كتابه «العراق قديمًا وحديثًا»، إعتمادا على إحصاء عام ١٩٤٧، بحوالي ٦٣٦٨ نسمة. وبلغوا العام ١٩٥٧، حسب الإحصاء الرسمي أيضاً، (١١,٨٢٥) نسمة. وبلغوا العام ١٩٦٥، حسب الإحصاء الرسمي، (١٤,٥٧٢) نسمة[٢].

وعدّ السيد نعيم بدوي الناشئ قومه بحوالي (١٥,٠٠٠) نسمة[٣]. وعدَّتْهم الأديبة الكاتبة الصابئيّة في كتابها «مفاهيم صابئة مندائيّة بـ (١٨,٠٠٠) نسمة. وفي مجلّة «المجلة» (تشرين الثاني ١٩٨٦)، ورد عددهم بعشرين ألف نسمة. وقيل إنّ عددهم

---

(١) ولاية الموصل في ماضيها وحاضرها، ص ١٣٠.

(٢) صالح فليح حسن، الصابئة دراسة جغرافيّة، مجلة كليّة الآداب، جامعة بغداد (١٩٧٥)، ص ٢٥.

(٣) مجلة آفاق عربيّة، ٤/ ١٩٧٥.

حـاليًا بـلغ مائة ألف نـسمـة. خـمسـون ألفًـا منهم في العـراق، والخمسون الآخرون بإيران وبقيّة دول العالم[٤].

وورب عددهم في تقرير مديرية الأمن العامة (داخل العراق فـقـط) في إحـصـاءات: (١٩٤٧، ١٩٥٧، ١٩٦٥، ١٩٧٧) على التـوالي: (٦,٥٩٧)، (١١,٤٢٥)، (١٤,٦٢)، (١٥,٩٣٧). واكثـر نسبة لهم في بغداد، ثمّ البصرة، ثمّ العمارة، ثمّ الناصريّة.

---

(٤) نزار ياسـر صكرحـيدر، رئيس مـركـز البـحوث والدراسـات المندائيّـة ببغداد، العام ٢٠٠٠؛ مقابلة مع جريدة القدس أجراها شاكر نوري.

الفصل السادس عشر

أعلام الصابئة

لقد ساهم الصابئة في بناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وخاصّة في العصر العبّاسي حتّى أيامنا هذه. فقد كان لهم دور بارز خاصّة حينما دخلوا في عداد أهل الذِّمَّة كطائفة شرعيّة[١]،

---

(١) قال أبو يوسف أيشع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف عن مذاهب الحرنانيّين المعروفين في عصرنا بالصابة: إنّ المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مصر يريد بلاد الروم للغزو؛ فتلقاه الناس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرنانيّين. وكان زيّهم إذ ذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة بوفرات كوفرة قرة جدٍّ سنان بن ثابت. فأنكر المأمون زيّهم، وقال لهم مَن أنتم؟ من الذمّة؟ فقالوا: نحن الحرنانيّة. فقال لهم: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا. قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا. قال: فمجوس أنتم؟ قالوا: لا. قال لهم: أفلكم كتاب أم نبي؟ فجمعوا في القول. فقال لهم: فأنتم إذن الزنادقة، عبدة الأوثان، وأصحاب الراس في أيّام الرشيد والدي. وأنتم حلال دماؤكم، لا «ذمّة لكم». فقالوا نحن نؤدّي الجزية.

فبرع بعضهم في الطبّ والصيدلة، وبعضهم في الموسيقى والحساب والهندسة والفلك. ومنهم من عُني بتدوين التاريخ وأخبار الزمان.

فقال: إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الإسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عزّ وجل في كتابه، ولهم كتاب، وصالحه المسلمون عن ذلك. فأنتم لستم من هؤلاء، ولا هؤلاء. فاختاروا الآن أحدَ الأمرَين: إمّا أن تنتحلوا دينَ الإسلام، أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه؛ وإلاّ قتلتكم عن آخركم. فإنّي قد نظرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه، فإن دخلتم في الإسلام، أو في دينٍ من الأديان التي ذكرها الله في كتابه، وإلاّ أمرتُ بقتلكم واستئصال شأفتكم.

ورحل المأمون يريد بلد الروم. فغيّروا زيّهم، وحلقوا شعورهم، وتركوا لبس الأقبيّة، وتنصّر كثير منهم، ولبسوا الزنانير، وأسلم منهم طائفة، وبقي شرذمة بحالهم، وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حرّان فقيه. فقال لهم وجدت لكم شيئا تنجون به، وتسلمون من القتل. فحملوا إليه مالاً عظيمًا من بيت مالهم، أحدثوه منذ أيّام الرشيد إلى هذه الغاية. فقال لهم: إذا رجع المأمون من سفره، فقولوا له: نحن الصابئون. فهذا إسم دينٍ قد ذكره الله جلّ اسمه في القرآن، فانتحلوه. فأنتم تنجون به. وقضى أنّ المأمون توفّي في سفرته تلك بالبذندون. وانتحلوا هذا الإسم منذ ذلك الوقت، لأنّه لم يكن بحرّان ونواحيها قوم يسمّون بالصابة. فلمّا اتّصل بهم وفاةُ المأمون، ارتدّ أكثر مَن تنصّر منهم، ورجع إلى الحرنانيّة، وطوّلوا شعورهم حسبما كانوا عليه قبل مرور المأمون بهم على أنّهم صابئون (أنظر كتاب ابن النديم، الفهرست، ص ٤٤٥ -٤٤٦).

تقلّد غير واحد منهم جلائل الأعمال في خدمة خلفاء بني العباس، وأمرائهم، ووزرائهم، وملوك بني بويه، ووزرائهم. فسار ذكرهم في الآفاق، ووسدت إليهم الأعمال الجليلة، والأسرار الخطيرة، فنهضوا بأعبائها نهوضاً[٢].

فثابت بن قرّة بن زهرون الحرّاني الصّابئي انتقل من حرّان إلى بغداد، واشتغل بعلوم الأوائل، فمهر فيها، وبرع في الطبّ، وله تآليف كثيرة في فنون العلم.

وإبراهيم بن ثابت بن قرة الصابئ، كان من حذّاق الأطباء ومقدِّمي أهل زمانه في صناعة الطبّ.

وإبراهيم بن سنان بن ثابت الصابئ، كان ذكيًا عاقلاً عالمًا بأنواع الحكمة. والغالب عليه فنّ الهندسة. وقد كتب مقالة فيها إحدى وأربعين مسئلة هندسية من صعاب المسائل، في الدوائر والخطوط والمثلّثات. وكتب مقالات عديدة في سائر الأعمال الهندسيّة.

ومن أشهر علمائهم أبو إسحق إبراهيم الصابئ، الذي اشتهر بدوره البارز في الأدب العربي والثقافة الإسلاميّة، وهو صاحب الرسائل المشهورة، والنظم البديع. كان كاتب الإنشاء

---

(٢) كتاب رسوم دار الخلافة لهلال الصابئ، تحقيق ميخائيل عواد، ص ٥.

ببغـداد عن الخليفـة، وعن عزّ الدولة بن بخـتيار البـويهي. وتقلّد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ. كان متشدّدًا في دينه.

ومن العلماء الأفذاذ، هلال بن المحسن الصابئ الذي ولد في بغـداد سنة ٣٥٩هـ ومات سنة ٤٤٨هـ . صنّف كـتابه (رسـوم دار الخلافة) من خلال وقـوفه على شؤون تلك الدار من رسوم، وما كان بداخلهـا من خبايا وخفايا وأسرار. وعمـل كاتباً لأسرار فخر الملك البويهي. واشتهـر أيضًا بتاريخه في أربعين مجلّدًا. وله أكثر من عشرة كتب في أصناف المعرفة التي بعصره.

ومن الأعـلام الصـابئين الذين بزغـوا بالعراق المـعاصـر، علماء وشـعراء وجامعيّـون وباحثون وأطباء وفنّانون ومـهنيّون ممتازون، وفي مقدّمتهم: الدكتور العالم عبد الجبار عبد اللّه (ابن الشيخ عـبد اللّه بن الشيخ سـام). ولد في قلعة صـالح في مدينة العمـارة، في ١٩١٢/١١/٤١، وأكـمل دراسـته الابتـدائيّـة في قضـاء (قلعـة صالح)، والمتوسطة في مركز العـمارة، والكليّة في بغداد، فـالجامعة الأمـريكيّة ببيـروت، ثم الدكتوراة في الفـيزياء بأمريكا. وافاه الأجل في أمريكا في ١٩٦٩/٧/١٢، ونقل جثمانه إلى بغداد، ودفن في (أبي غريب) حيث مقبرة الصابئة.

وتميّـز من الصـابئـة المنـدائيّين، البـاحـثـان نعـيم بدوي وغضبان رومي.

ومن أشهر شعرائهم المعاصرين: لميعة عباس عمارة، وعبد الرزاق عبد الواحد.

ومن أبرز الأسماء البحثيّة في التأليف والترجمة الدكتورة ناجية المراني،

ومن صحفيّيهم اللامعين عزيز سباهي، وهمام المراني.

ومن الشعراء الصابئيين، منصور دبّاس، وعبد النبي رابع، وعزيز كاري، وسوادي واجد، وسباهي شبيب، وخشن غيلان، ومنصور خيطان.

إلى جانب من اشتهر بينهم في المسرح والسينما، كالفنان مكي البدري.

وفي النحت والرسم كالفنّانين: يحيى الشيخ، وخلود سيف، وغالب ناهي، وسوسن سلمان، وفيصل السعدي.

لكنّ أكثر الصابئة يجيد المهنة المتوارثة عن الأجداد: صياغة الذهب والفضة والتطعيم بالمينا. واشتهروا بصناعة السيوف والخناجر والنخلة العراقيّة من الذهب الخالص، حيث تهدَى أعمالهم إلى الملوك والرؤساء الذين يزورون العراق. وقد تميزت أعمالهم بالنكهة العراقيّة الخالصة، المستلهمة من الآثار والشواهد

المعماريّة والتـراثيّة الأصيلة، التي صنعوا نماذجهم تجسـيدًا لها، كأسـد بابل، وقيـثارة أور، ومسلّة حـمورابي، وملوية سـامراء، وطاق كسـرى، إلـى جـانب النخلة، والجـامع، والزورق، وبيت القصب، والجمل، والدلّة العربيّة وغيرها.

الفصل السابع عشر

نماذج من صلوات الصابئة

١ - صلاة التوحيد

بسم اللّه المتعال.

سلام وتحيّة عليك يا صاحب دار الراحة والوقار.

سلام اللّه وتحيّته عليكم يا أجدادنا الصالحين.

سلام اللّه وتحيّته عليكم أيّتها الكتب المقدسة.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك ماري أدربوثا أليثا.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك مندادهي برنيصتين.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك هيول زيوا.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك شيشلام ربّا.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك إسحاق زيوا ربا قدمائي.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك سام زيوا دخيا بخرا حبيبا قدمائي.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك بهرام ربّا.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك سيمات هي.

سلام اللّه وتحيّته عليك يا ملكا يهيا يهانا (يحيى يوحنا).

سلام اللّه وتحيّته عليك يا ملكا آدم أبو البشريّة (آدم).

سلام اللّه وتحيّته عليك يا ملكا شتيل بن آدم أبو البشر.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك يوزاطق منداهي.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك أواثر راما.

سلام اللّه وتحيّته عليك أيّها الملك إبتاهيل برزا هربيل.

سلام اللّه وتحيّته عليكم أيّها الملائكة الصالحين، وأيّها النهر المقدس الذي يجري التعميد فيك.

سلام اللّه وتحيّته عليكم يا سكنة عالم الأنوار والأماكن المقدسة.

يا صاحب الرحمة ويا ملك الطهارة، هذا عبدك، اغفرلي ذنوبي، إني أسألك ربِّ رحمتك وعطفك.

٢ - صلاة الصبح

بسم الله المتعال.

أيّها المؤمنون والصالحون! إنهضوا، إنهضوا، واسجدوا لله، واعبدوه. وصلّوا على ملائكته الطاهرين، مثل شيشلام ربّا، تناكسيا هام زيوا، يا وربا، أزلات زفتى، وسيمات هي، ثمّ اعبدوا الله، ربّ العالمين، مانح الحياة، وخالق الكائنات أجمعين، مالك عالم الأنوار، وكلّ ما هو موجود. أرحم الراحمين، واشفقهم.

ألفرد الطيّب المؤمن عندما تكون أعماله ترضي الله، ولسانه ينطق بالطيّبات والحق، فإنّه سوف يدخل الجنّة.

نسجد ونعبد الله الذي لا دخل لأحد بنشئته، ونحن نعبد ونحمد الله الواحد الأحد الوقور المتعال، ونصلّي على الملك مندادهي المقرّب من عرشه.

٣ - صلاة

إلهي طاهر

سبحان بقلب

سبحان ربي بقلب طاهر،

إله كلّ العوالم، سبحانه.

مبارك هو ومسبّح، معظّم ومبجّل.

ودائم اللّه العظيم المتعالي.

سبحانه ملك عالم الأنوار السامي

ربّ الحق ذو الحول الشامل

الذي لا شبيه له. النور النقي، والخير.

العميم الذي لا ينصب. ألغفور الثوّاب،

الرحيم الرحمان،

العارف بجميع الطيّبين، العزيز الحكيم

العالم البصير، القادر على كلّ شيء.

رب كلّ عوالم النور، العليا والوسطى والسفلى

ذو الجلال العظيم الذي لم يُرَ ولم يُسمَع.

٤ - ترتيلة ليوحنا المعمدان

باسم الحيّ ربي النور الأسنى

ولد يوحنا في القدس

أليصابات ولدت ولدًا من الأب الشيخ زكريّا

يوحنا ولد ولمس الأردن وكان نبيًا

نوّر قلبَه الإيمان.

ونحن نصطبغ بصبغته

ونُرسم بالرسم الزكي

ونأكل من زاده. ونشرب من مائه

فتتفتّح قلوبنا الى النور.

٥ - صلاة الظهر

بسم الحي العظيم

إنّا للحي القديم

سجدنا للرب

عارف الحياة الموقّر

الذي من نفسه تكوّن.



جريدة المصادر والمراجع

إبن النديم (محمد بن اسحق)، ألفهرست، بيروت، مكتبة خيّاط، (١٩٦٤).

ألأب أنستاس الكرملي، الصابئة، مجلة المشرق البيروتيّة، عدّة أعداد للعام ١٩٠٢.

اللّيدي دراور، الصابئة المندائيّون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، بغداد، (١٩٦٩).

عبد الرزاق الحسني، الصابئون في حاضرهم وماضيهم، بغداد، المكتب العربي للتوزيع، (١٩٨٤).

عبد الحميد عبادة، مندائي أو الصابئة الأقدمون، بغداد، مطبعة الفرات، (١٩٢٧).

محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيّين، دمشق، طبعة أولى (١٩٩٨).

ألشيخ رافد الشيخ عبد الله، التعميد المندائي، بغداد، شركة التايمس (١٩٩٠).

ألشيخ رافد الشيخ عبد الله، ألصلاة المندائيّة وبعض الطقوس الدينيّة، مطبعة التايمس، بغداد (١٩٨٨).

محمد عبد الحميد الحمد، صابئة حرّان وإخوان الصفا، دمشق الأهالي (١٩٩٨).

محمد عبد الحميد الحمد، صابئة حرّان والتوحيد الدرزي، دار الطليعة الجديدة، دمشق (٢٠٠٠).

هلال بن المحسن الصابئ، ورسوم دار الخلافة، تحقيق ونشر ميخائيل عواد، بيروت (١٩٨٦).

ناجية المراني، مفاهيم صابئيّة، مطبعة التايمس بغداد (١٩٨١).
سليم برنجي، الصابئة المندائيّون، دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيّين، ترجمة جابر أحمد، بيروت، دار الكنوز الأدبيّة (١٩٩٧).
علي الخامنئي، الصابئة، حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينيّة، دار الغدير، بيروت (١٩٩٩).
غضبان الرومي، الصابئة، بغداد، مطبعة الأمّة (١٩٨٣).
عزيز سباهي، أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينيّة، دمشق، دار المدى، الطبعة الثانية (١٩٩٩).
كتاب الصابئة المقدّس (الكنزا ربّا)، ترجمة الدكتور يوسف قوزي، بغداد (٢٠٠٠).
محمد الجزائري، المندائيّون الصابئة، المعهد الملكي للدراسات الدينيّة، بيروت (٢٠٠٠).
رشيد الحنون، الأديان والمذاهب بالعراق، منشورات الجمل (٢٠٠٣).
مجلة التراث الشعبي، الأعداد ٣ (١٩٧١)، ٥-٦ (١٩٧٢)، ٤ (١٩٧٣)، ٨ (١٩٧٣)، ٥ (١٩٧٤)، ٦-٧ (١٩٧٤)، ٩ (١٩٧٤)، ١٢ (١٩٧٤).
هوك. ص. هـ.، ديانة بابل وأشّور؛ ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر، دمشق (١٩٨٧٠).
Brandt W., Die Mandaische Religion, Leipzig 1889.
Rudolph, Kurt, Mandaëism, Leiden, Brill, 1878.

فهرس الكتاب